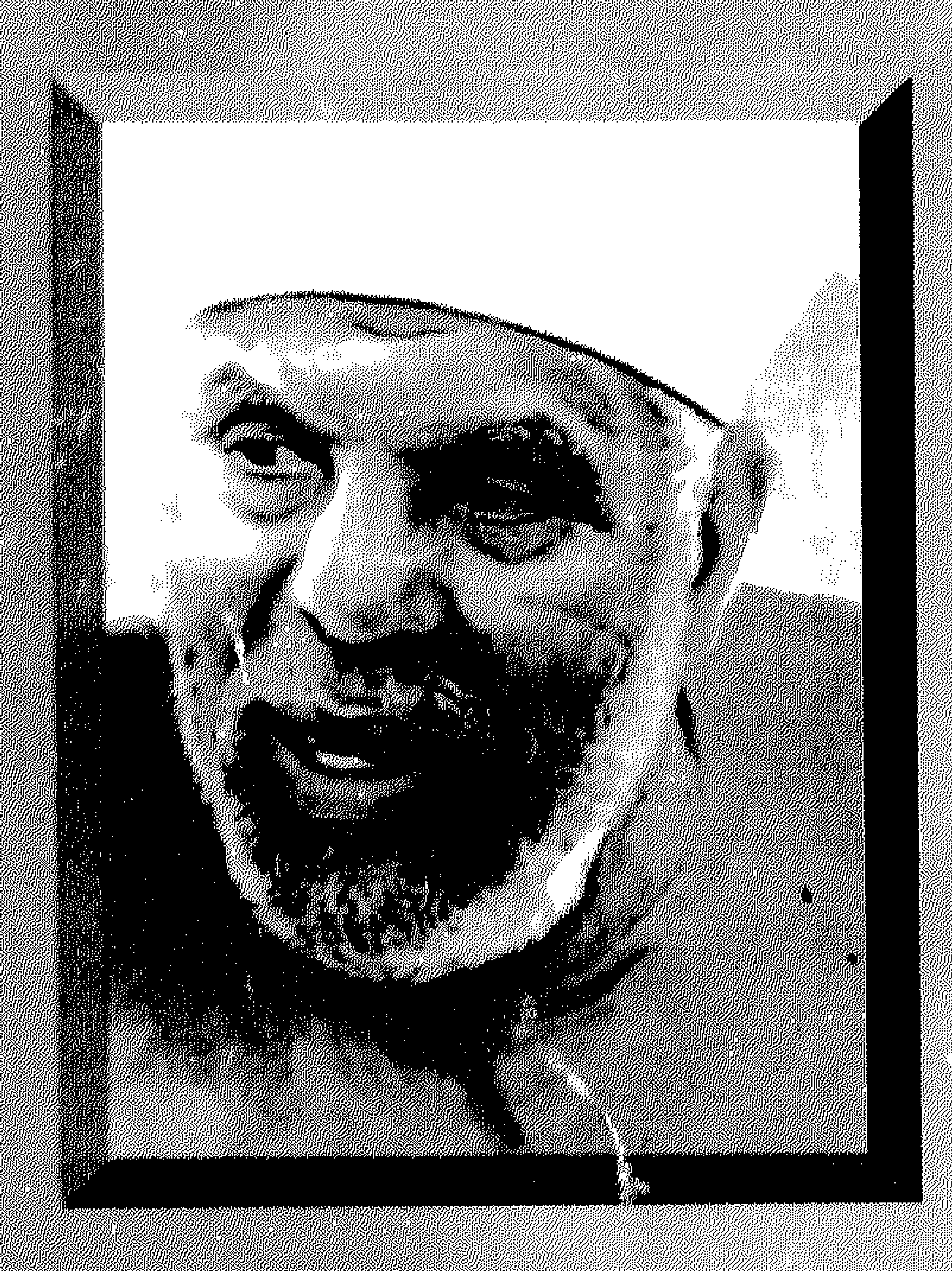


مكتبة الشعراوى الإسلامية



يوم القيامة







محمد متولى الشعراوى

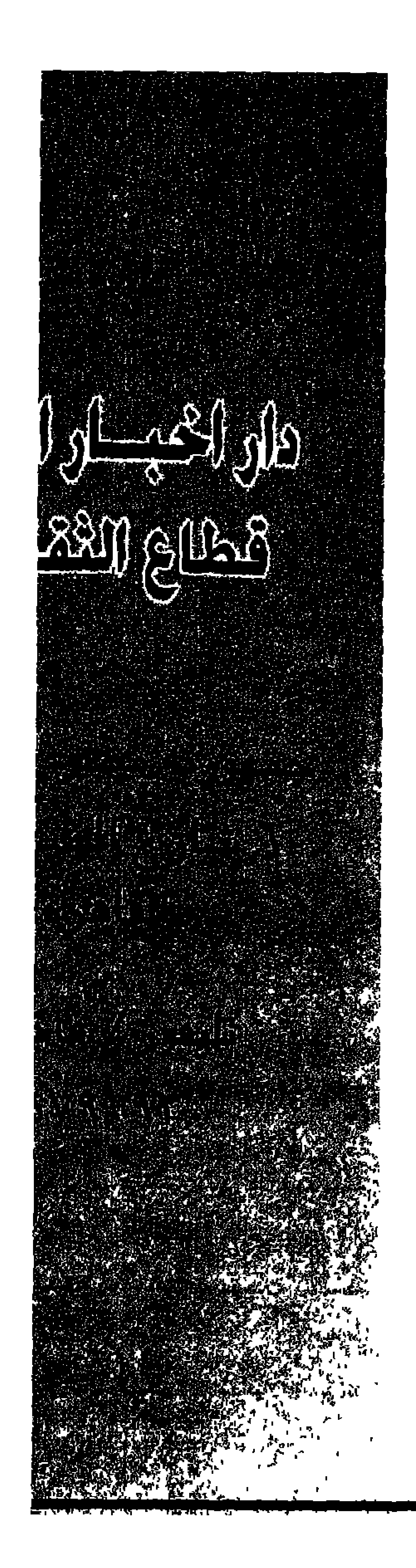
مكتبة الشعراوى الإسلامية



قطاع الثقافة

يوم القيامة

فضيلة الشيخ / محمد متولى الشعراوى



بسم الله الرحمن الرحيم

بعد حمد الله والصلاة والسلام على
سيدنا رسول الله.
أسأل الله أن تكون هذه الكتب
التي ستصدر عن تلقيني خطوة على
طريق الهدى ونور وأمنية الراغبين للإيمان
والله نسأل الهداية والتوفيق

محمد متولي الشعراوي

تصميم الغلاف : أشرف حسين

التصميم الداخلي : عبد الكريم محمود

الفصــل الأول



لماذا القيامة يوم ؟

الله سبحانه وتعالى خلق هذا الكون . .
وحدد لكل شىء فيه ميلادا ونهاية . . فالأرض
لها ميلاد ولها نهاية . . والشمس لها ميلاد ولها
نهاية . . وكل مافى الكون . . له ميلاد وله
نهاية . . إلا ماشاء الله . . لأن الله سبحانه
وتعالى له طلاقة القدرة فى كونه . . فلا شىء
يعلو مشيئته . . ولا شىء يخرج عن مشيئته . .
وهذا الكون الذى نعيش فيه مخلوق
بالأسباب . . أى أن الله سبحانه وتعالى . .
جعل فيه أسبابا لكل شىء .

فالكون فيه عنصران . . عنصر ينفعل لك فيعطيك بلا أسباب . . كالشمس والهواء والمطر وغير ذلك . . وعنصر ينفعل بك . . إن أخذت بأسباب الله فى الأرض أعطاك . . وإن لم تأخذ بأسباب الله لا يعطيك . .

فالأرض أن حرثتها وسقيتها . . وبذرت فيها الحب . . أعطتك الثمر الوفير . . وأن لم تأخذ بالأسباب . . لا تعطيك شيئا . . والثروات الموجودة فى الجبال وفى باطن الأرض . . إن بحثت عنها أعطتك . . وأن لم تبحث عنها لاتعطيك .

فالذين بحثوا عن البترول مثلا أو المعادن فى باطن الأرض والجبال . . أعطتهم الأرض من بترولها ومعادنها . . وإن لم يبحثوا عنها . . ظلت هذه المعادن لا يأخذ منها الانسان شيئا .

والكون بالأسباب هو ما نسميه حياة الدنيا . . فهى المخلوقة من الله جل جلاله بالأسباب . . فإذا انتهت الحياة الدنيا . . وجاء يوم القيامة . . انتهى عمر هذا الكون . . وبدأ خلق آخر لله سبحانه وتعالى . . فيه كل شىء من الله جل جلاله مباشرة . . ففى الجنة بمجرد أن يخطر الشىء على بالك تجده أمامك . . بقدرة الله سبحانه وتعالى . . تنتهى الأسباب ويصبح العطاء من المُسَبِب مباشرة . .



والانتقال من كون الأسباب . . إلى الكون الذى يتم فيه كل شىء من الله مباشرة . . يسبقه ما أطلق الله تبارك وتعالى عليه « يوم القيامة » . . ففى هذا اليوم ينتهى كون الأسباب . . لأنه أدى مهمته . . وتبدأ حياة جديدة . . مختلفة عن الحياة التى نحياها على الأرض . . فيها إما نعيم مقيم . . وإما عذاب أبدى . . حياة ليس فيها موت . . ولكن فيها خلود . . حياة ليس فيها اختيار . . ولكن فيها جزاء . . حياة ليس فيها عمل . . ولكن الأمر فيها من الله وإلى الله . .

والله سبحانه وتعالى . . أخبرنا فى منهجه . . بأن الحياة الدنيا فيها اختبار وابتلاء وامتحان . . اختبار للايمان بالله . . وامتحان لحب الله فى القلب . . وابتلاء للطاعة والمعصية . . ولكننا نمر بهذا الامتحان . . ومن فاز يُنَعِمُهُ اللهِ فى الجنة . . ومن كفر وعصى واستكبر ، ينتظره عذاب النار .

ويوم القيامة هو موعدنا جميعا . . نخرج فيه من القبور لنقف بين يدى الله . . انه يوم مجموع له الناس . . ويوم مشهود . .

والحق تبارك وتعالى أطلق على القيامة لفظ يوم . . إن اليوم عند بعض الناس هو من شروق الشمس إلى غروبها . . وعند البعض الآخر هو من شروق الشمس إلى شروقها فى اليوم التالى

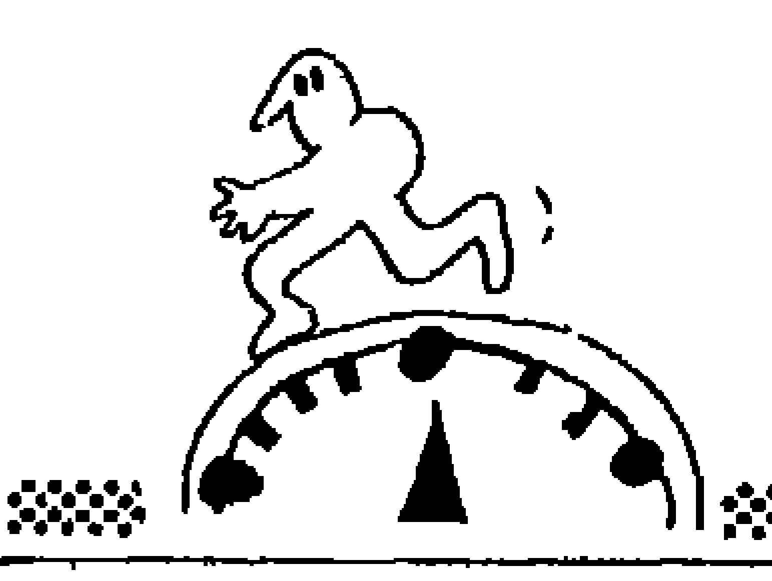
وهذا التعريف لايهمنا أن نناقشه . . لأنه تعريف نسبى . أو كما يقولون ظرف زمانى . . شىء نقيس به الزمن فى الدنيا . . فما الذى جعله يأتى فى القيامة .

الحق سبحانه وتعالى ـ وهو لا زمن عنده ـ حدد القيامة بأنها يوم . . فكم عدد ساعات ذلك اليوم ؟ . . وكم الزمن الذى يستغرقه ؟ . . وهل هو ينتهى بغروب الشمس أم ماذا ؟

نقول إننا لكى نفهم معنى يوم . . لابد أن نناقش مفهوم الزمن . . الزمن مخلوق من مخلوقات الله جل جلاله . . مخلوق تعودنا الحياة معه فى الدنيا . . وكل شىء فى الحياة الدنيا يقاس بالزمن .

فنحن لنا يوم ميلاد نولد فيه . . ويوم وفاة نموت فيه . . وأيام نعيشها فى الدنيا . . وكل شىء فى حياتنا له وقت محدد . . فنحن سنفعل كذا اليوم . . وسنفعل كذا غدا . . وسنفعل كذا فى العام القادم . . سنبنى هذه العمارة خلال ثلاث سنوات مثلا . . وسنسافر فى العام القادم إلى أوربا أو أمريكا .

إن الزمن هو مقياس حياتنا . . هو مقياس الأحداث التى نمر بها . . والزمن من حجب الغيب . . فهو يحجب عنا الماضى . . فلا ندرى ما حدث فيه . . إلا أن نقرأه فى كتب التاريخ أو يرويه لنا الرواة . .



الزمن يملكنا ولا نملكه

والزمن هو حجاب المستقبل . . فنحن لاندرى ماذا سيحدث غدا . . أو بعد غد ، أو فى الأعوام القادمة . . وكل ما ندريه . . هو حاضر نعيشه . . وماض عشناه فنعرفه . . ومستقبل لاندرى ما هو قضاء الله فيه .

والزمن يملكنا ونحن لانملكه . . فلا يستطيع الانسان منا أن يعيش خارج الزمن . . لايستطيع أن يبقى طفلا فلا يكبر . . ولا أن يبقى شابا فلا يصل إلى مرحلة الشيخوخة . . ولا يستطيع إنسان أن يعيد الماضى ليصحح أخطاءه . فلا يمكنه لو ارتكب جريمة قتل . . أن يعيد الزمن حتى يتجنبها . ولا إن وقع له حادث أن يعود بالزمن إلى الوراء حتى لايقع .

ان الزمن كما قلنا يملك الانسان والانسان لا يملكه . . ذلك هو الزمن فى حياتنا . . ولكن الله سبحانه وتعالى ـ وهو خالق الزمن ـ لا زمن عنده . . فلا ماضى اختفى عن علمه . . ولامستقبل خرج عن قضائه . . ولا أحداث تجد . . بل كل مافى الكون بما فيه . . وحتى يوم القيامة . . وما بعد يوم القيامة . . فى علم الله سبحانه وتعالى . . وهى أشياء يبديها لنا . . ولكن لايبتديها . . لأنها فى علمه جل جلاله .

واذا قرأت الآية الكريمة :

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾

(الآية ٨٢ سورة يس)

فلابد أن تلتفت إلى قوله تبارك وتعالى . . يقول: (له) . . أى أن لهذا الشىء وجوداً فى علم الله . . ولكنه سبحانه وتعالى يبديه لنا بكلمة: « كن » . . فيكون الشىء ظاهرا لنا ونعرفه . .

على أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يفهمنا . . وأرادنا أن نعلم أن الزمن شىء نسبى . . يجريه الله على من يشاء . . ولايجريه على من يشاء . . وأن هناك مراحل يسقط فيها الزمن عن الانسان . . وذلك حتى نعرف المعنى الحقيقى للزمن . . وهو أنه مقياس للأحداث . . إذا توقفت . . توقف إحساسنا بالزمن وفقد معناه .

عندما ينام الانسان ويسكن سكونا مؤقتا . . فإن معنى الزمن عنده يتوقف . . فإذا استيقظ لايعرف كم ساعة قضاها وهو نائم . . إلا أن يكون قد نام والشمس مشرقة . . واستيقظ والدنيا ظلام . . أو نام والدنيا ظلام . . واستيقظ ليرى نور الشمس يملأ الكون . . تلك تجربة نعيشها جميعا . . وهى فقدان الاحساس بالزمن أثناء النوم . .

ولكن الحق سبحانه وتعالى ـ رحمة بعباده ـ أفهمنا أنه يمكن أن يجعل الانسان خارج نطاق الزمن تماما . . أى لا تأثير للزمن عليه . . ولايكون الزمن مقياساً لحياته .

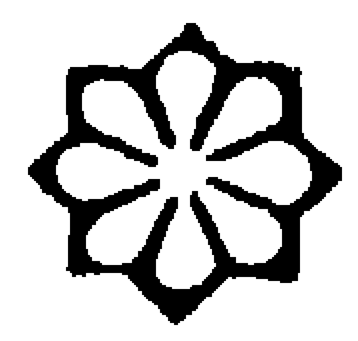
وإذا قرأت قصة أهل الكهف .. تعرف هذه اللفتة .. إن أهل الكهف فتية آمنوا بربهم .. والتجأوا إلى كهف ليحتموا به من بطش الكفار .. فماذا حدث لهم ؟

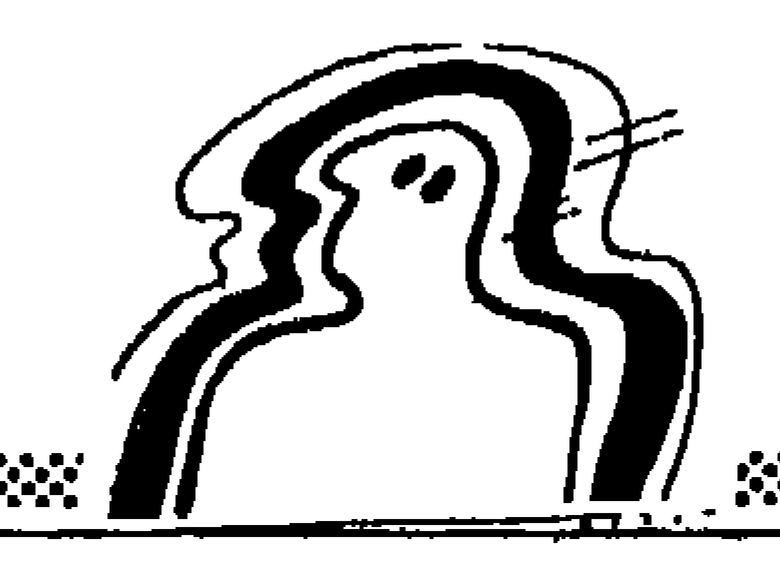
يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴾

(الآية ٢٥ سورة الكهف)

أى أنهم ظلوا نائمين فى الكهف ثلثمائة سنة وتسعا .. ضرب الله سبحانه وتعالى فيها على آذانهم .. حتى لايحدث ضجيج بالقرب منهم .. أو صوت وحش يمر بجوار الكهف فيستيقظوا .. لأن الأذن هى أداة الاستدعاء .. فأنت حين تريد أن توقظ النائم تناديه بصوت عال فيستيقظ .. وإذا كان الانسان نائما .. وصدر صوت عال بالقرب منه استيقظ فزعا ..





كم لبثتم ؟

هؤلاء الفتية ناموا أكثر من ثلثمائة عام ثم استيقظوا . . ماذا كان يمكن أن يحدث لو أن الزمن كان له تأثير عليهم ؟

لو فرضنا أن أجلهم امتد ولم يأتهم الموت . . كانوا على الأقل قد ناموا وشعرهم أسود . . وقاموا وقد ابيض شعرهم أو طالت ذقونهم . . أو تحول شبابهم إلى الكهولة .

ولكن الله سبحانه وتعالى أخرجهم من حكم الزمن . . ولذلك عندما قاموا كان أول سؤال نطقت به شفاههم . . كما يخبرنا القرآن الكريم :

﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾

(من الآية ١٩ سورة الكهف)

مجرد السؤال هنا « كم لبثتم » . . يدلنا على أن هؤلاء الفتية خرجوا من حكم الزمن . . لماذا ؟ . . لأنهم حين استيقظوا نظر بعضهم إلى بعض . . فلم يجدوا تغييرا قد حدث فى هيئتهم ساعة ناموا . . بل وجدوا أنهم قاموا على نفس الهيئة التى ناموا عليها . . لذلك كان جوابهم : « لبثنا يوما أو بعض يوم » . .

ولو أنهم قاموا ووجدوا شعورهم قد تحولت من السواد إلى البياض . . أو شبابهم قد ذهب وجاءت بدلا منه الشيخوخة . . أو أظافرهم وذقونهم قد طالت بشكل غير عادى . . ما قالوا أبدا : « لبثنا يوماً أو بعض يوم » . . بل لعرفوا أنهم ناموا سنوات طويلة .

ولكن لأنهم لم يجدوا تغييرا قد حدث بالنسبة لهيئتهم . . فإنهم قاسوا المدة التى ناموا فيها . . على ما ينامه الانسان عادة . . وهو بضع ساعات . . أو إن كان متعبا تعبا شديدا نام يوما كاملا ــ إذن فقياسهم زمن النوم على الزمن العادى الذى ينامه الانسان ، دليل على أنهم قد خرجوا من حكم الزمن طوال فترة نومهم . . ولأنهم لم يكن عندهم من آلات القياس ما يحدد لهم الزمن الذى قضوه خلال فترة النوم . . حددوه على أساس العادة البشرية . .

الحق سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلا آخر فى القرآن الكريم عن نسبية الزمن . . وكيف أنه مقياس يجريه الله على من يشاء . . ويوقفه عمن يشاء . . إنها قصة ذلك الرجل الصالح من بنى اسرائيل . . الذى كان يمر على قرية قد نزل بها العذاب . . يقول الحق جل جلاله :

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾

(من الآية ٢٥٩ سورة البقرة)

هذا الرجل الصالح تساءل عن قدرة الله سبحانه وتعالى . . فى أن يحيى قرية خُرِّبَتْ تماما . . فماذا فعل الله سبحانه وتعالى به ؟

تقول الآية الكريمة :

﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾

(من الآية ٢٥٩ سورة البقرة)

أراد الحق جل جلاله أن يريه آية من آيات طلاقة القدرة . . فأماته مائة عام ثم بعثه .

وهنا لابد لنا من وقفة بالنسبة لأهل الكهف . . لقد أخرجهم الله عز وجل من حكم الزمن وهم أحياء . . وظلوا على قيد الحياة نائمين أكثر من ثلثمائة سنة . . ولكنه تبارك وتعالى لم يمتهم . . ولذلك يقول الحق جل جلاله :

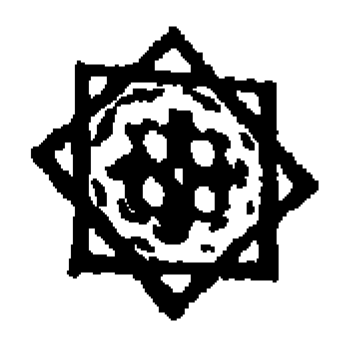
﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾

(من الآية ١٨ سورة الكهف)

وقوله سبحانه : « وهم رقود » . . ولم يقل وهم أموات . . دليل على أنهم كانوا أحياء ولكنهم نائمون . . وقوله جل جلاله : « ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال » . . يلفتنا إلى أن الحق تبارك وتعالى . . يريد أن تبقى أجسادهم سليمة خلال

فترة النوم الطويلة التى ناموها . . ذلك اننا نعرف أن أى إنسان يصاب بمرض يضطره إلى رقاد طويل . . لابد أن نقلب له جسده حتى لايصاب بالقروح والالتهابات .

وهكذا كانت حكمة التقليب التى لم نفهمها . . إلا بعد أن تقدم العلم . . وعرفنا تأثير الرقاد الطويل بدون تقليب الجسد . .



إن الله سبحانه وتعالى أعطانا فى سورة - الكهف - مثلا آخر بأنه جل جلاله يخرج الحى من حكم الزمن متى أراد .. وأعطانا مثلا آخر فى سورة البقرة بأن الميت يخرج من حكم الزمن .. فحياة البرزخ من لحظة الوفاة إلى ساعة البعث لازمن فيها .. ولذلك نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ﴾

(من الآية ٢٥٩ سورة البقرة)

هذا الرجل الصالح حين أماته الله مائة عام ثم بعثه .. لم يحس طوال الفترة بين الموت والبعث بالزمن .. ولذلك عندما سأله الحق تبارك وتعالى : « كم لبثت قال لبثت يوما أو بعض يوم » .. قياسا على الوقت الذى ينامه الانسان عادة .

حينئذ أخبره الحق تبارك وتعالى بقوله : « بل لبثت مائة عام » .

ثم أراد الله جل جلاله أن يلفته إلى طلاقة قدرته فى مخلوقين من مخلوقاته .. أراه الطعام لم يحدث له شىء رغم أنه مر عليه مائة عام .. فلا زال كما هو لم يتلف ولم يؤثر فيه الزمن .. ثم

أراه الحمار الذى كان يركبه . . وقد مضى عليه قانون الزمن فأصبح عظاما نخرة . . وذلك مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ﴾

(من الآية ٢٥٩ سورة البقرة)

ونظر الرجل إلى طعامه . . فوجده كأنه لم يمر عليه ساعة . . ونظر إلى حماره فوجده قد مات ثم تعفن ثم تحلل . . حتى أصبح عظاما نخرة . . وهكذا رأى آثار الزمن فيما حدث فى حماره . . لأن ذلك لايمكن أن يحدث فى يوم واحد . . بل لابد من فترة طويلة .

ثم أعطاه الحق سبحانه وتعالى آية . . بأن جعله يشهد عودة العظام النخرة إلى الحياة فى بعث للحمار الذى مات . . فقال الرجل الصالح عندما رأى ذلك « أعلم أن الله على كل شىء قدير » .

لماذا شهد بقدرة الله سبحانه وتعالى بعد أن كان يتعجب ويتساءل . كيف سيحيى الله القرية بعد أن دمرت ومات كل من فيها .

والقدرة هنا تتجلى فى عدة آيات . . أولها موت الرجل مائة عام ثم بعثه فى نفس هيئته . . وثانيا أن الطعام ظل مائة عام لم

يتعفن ولم يتغير . . وثالثا أن الحمار الذى كان عظاما نخرة عاد إلى الحياة . . فى إعادة خلق مشهود وليس غيبيا . .

بذلك نكون قد تيقنا أن الزمن . . وهو خلق من خلق الله سبحانه وتعالى . . خاضع لمشيئة الله . . فإن شاء أجراه على خلقه فى الحياة الدنيا . . وإن شاء أخرج خلقه من قوانين الزمن وهم أحياء . . كما حدث لأهل الكهف . . وإن شاء أخرجهم من قوانين الزمن عندما يموتون . . كما حدث للرجل الصالح . . والميت فى حياة البرزخ لا زمن عنده . . مصداقا لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ ﴾

(من الآية ٥٥ سورة الروم)

والمجرمون من بداية الخلق . . وحتى يوم البعث .. لبثوا فى قبورهم ربما مئات الألوف من السنين . . وربما أكثر من ذلك ، ولكن لازمن عندهم فى حياة البرزخ . . لذلك لايعرفون عدد السنين التى أمضوها فى مقابرهم فى انتظار يوم البعث . .



نأتى بعد ذلك إلى معنى كلمة يوم . . الله سبحانه وتعالى أرادنا أن نتنبه إلى أنه جل جلاله يخلق ما يشاء بلا قيود . . وأرادنا أن نعرف أن الزمن خاضع لمشيئة الله سبحانه وتعالى . . واليوم عند الله عز وجل مختلف بحسب المهمة التى ستقضى فيه . . أو الأحداث التى ستقع فى هذا اليوم . . ولذلك نجد فى القرآن الكريم قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾

(من الآية ٤٧ سورة الحج)

وقوله سبحانه :

﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾

(من الآية ٤ سورة المعارج)

هاتان الآيتان الكريمتان . . اللتان حاول المستشرقون استغلالهما . . فى الادعاء بأن هناك تناقضا فى القرآن الكريم . . إذ كيف يكون اليوم ألف سنة . . ويكون فى نفس الوقت خمسين ألف سنة ؟

نقول لهم أنتم لم تفهموا اللفتة الايمانية الكبيرة فى هاتين الآيتين . . فالله سبحانه وتعالى يريدنا أن نفهم أنه خالق الزمن . . يخلق لكل حدث ما يناسبه . . .

فإذا أراد يوما مدته ألف عام خلقه . . وإذا أراد يوما مدته خمسون ألف عام خلقه . . وإذا أراد يوما مدته مليون سنة خلقه . . فليس هناك قيود على قدرة الله جل جلاله . .

إن الله سبحانه وتعالى قد شاء أن يكون اليوم فى الأرض أربعا وعشرين ساعة . . ليناسب ذلك حياة الناس وطاقاتهم . . لأن الجسد البشرى يناله التعب بعد ساعات . . فالانسان لايستطيع عادة أن يعمل أكثر من ثمانى أو عشر ساعات . . ثم بعد ذلك يصبح محتاجا إلى الراحة . . ليستطيع أن يجدد نشاطه ويبدأ العمل من جديد . .

حتى أولئك الذين يعملون أربعا وعشرين ساعة متواصلة . . لايستطيعون تحدى طبيعة الخلق . . بل نجدهم محتاجين للنوم أربعا وعشرين ساعة متواصلة . .

إن الله سبحانه وتعالى ـ وهو خالق الانسان وصانعه ـ جعل له نهارا يوازى عدد ساعات قدرته على العمل ويزيد قليلا . . وليلا يستوعب عدد ساعات حاجته إلى الراحة ويزيد قليلا . .

وهكذا نرى أن خَلق الليل والنهار . . مناسب لقدرات الانسان على العمل وحاجته إلى الراحة : . فكأنه من تمام كمال الخلق ، تحديد عدد ساعات الليل والنهار بأربع وعشرين ساعة .



ولكن إذا كان من تمام الخلق أن يخلق الله سبحانه وتعالى يوما مقداره ألف سنة .. فإنه جل جلاله يخلقه ويوجده بكلمة « كن » .. حتى يناسب ذلك اليوم المهام التى خلق من أجلها .. والأحداث التى ستقع فيه .

فاذا كنا محتاجين إلى فترة زمنية .. تستغرق أحداثا تحتاج ليوم مقداره خمسون ألف سنة .. خلق الله تبارك وتعالى لها يوما مقداره خمسون ألف سنة .. فان كنا محتاجين الى مليون سنة من الأحداث .. خلق لها الله جل جلاله اليوم الذى يسعها .. بحيث يستمر اليوم مليون سنة .

أين يوم القيامة من هذه الأزمنة ؟

نقول إن هذا غيب عنا .. لانستطيع أن نحدد زمنه .. ولكننا مما علمنا الله فى القرآن الكريم .. نعرف أن زمن يوم القيامة يتسع لكل أحداث هذا اليوم .. بحيث لا يؤجل حدث إلى يوم آخر .. ولايتم حدث باستعجال لأن الوقت قد انتهى .. بل الله سبحانه وتعالى خلق هذا اليوم .. بقدر ما سيتم فيه من أحداث .. بحيث يحشر الناس جميعا كل فى مكانه المحدد .. ويحاسب الناس جميعا كلّ بحسابه .. ويتم فيه ذلك الحوار الذى أنبأنا الله سبحانه وتعالى عن بعض أحداثه فى

القرآن الكريم . . وأخفى بعض أحداثه فى عالم الغيب . . فلا يعلمها أحد .

وهكذا نعرف أن يوم القيامة قد يكون ساعات . . وقد يكون سنوات . . وقد يكون ألف سنة . . وقد يكون مليون سنة . . حسب ما قدر له سبحانه وتعالى فيه من أحداث .

ولكن لماذا أسماه الحق تبارك وتعالى يوما ؟ . . لنعلم أنه ليس له غد . . وأن الحساب لن يتم جزء منه فى يوم . . ويؤجل الباقى إلى الغد . . بل سيظل الحساب مستمرا . . ومشاهد يوم القيامة تتم . . دون أن تكون هناك فترة للراحة . . أو دون أن يكون هناك تأجيل ، حتى يُقْضَى بين الناس . . كل الناس . . منذ عهد آدم إلى الذين سيشهدون قيام الساعة . . فكل هؤلاء سيقفون بين يدى الله . . ولن يفلت واحد منهم من الحساب .

هنا قد يتساءل سائل : هؤلاء الخلق منذ عهد آدم بلايين من البشر . . كم يستغرق حسابهم ؟

بعض الناس يعتقد . . أنهم محتاجون لملايين السنين كى يتم حسابهم . . ويقرأ كل منهم كتابه .

ولكن هذا السؤال . . يضع قيودا على فهم السائل لقدرة الله سبحانه وتعالى . . فالسائل هنا أخذ الحساب بمفهوم القدرة البشرية المحدودة . . ولكن قدرة الله جل جلاله بلا قيود ولا حدود .

وقد سئل على بن أبى طالب رضى الله عنه . . كيف سيحاسب الله الناس جميعا فى وقت واحد ؟ . . قال كما يرزقهم فى وقت واحد . .

والناس تتساءل . . كيف سيأتى الله سبحانه وتعالى بكل منا يوم القيامة . . بصورته وجسده الدنيوى ؟ . . نقول إن الله سبحانه وتعالى . . قد قرب إلى أذهاننا أن هذا سيحدث . . فكل انسان له بصمة لا تتكرر . . هذا ما نعرفه يقينا . . وكل جسد له رائحة لا تتكرر . . والدليل على ذلك أننا إذا أتينا بمنديل فيه عرق انسان . . وجعلنا أحد كلاب الشرطة يشمه . . فإنه يتعرف على صاحب المنديل . . من بين عشرات أو مئات الاشخاص الموجودين . . وذلك من رائحة عرقه التى لا تتكرر .

ولكل جسد شفرة خاصة . . لا تتكرر مع غيره . . فاذا نقلنا عضوا من جسد انسان إلى جسد انسان آخر . . فإن الجسد المنقول له العضو يلفظه لأنه عرف ـ بالشفرة الخاصة بالجسد ـ أن هذا العضو غريب عنه . . بينما لو جرح إنسان أخذ الجسم ينسج من الخلايا ما يساعد هذا الجرح على الالتئام . . لأنه يعرف من شفرة الجسد . . أنه عضو منه فيساعده . . وهناك أعضاء كالكبد . . إذا بتر جزء منها ينمو من جديد . . كذلك الشعر والأظافر . . كلما قُصَّت نمت من جديد .

من الذى أخبر هذا الجسد البشرى . . بأن هذا منه فيتلاءم معه . . كما تلتئم الجروح بعد العمليات الجراحية . . بتفاعل

ذاتى من الجسد ؟! ومن الذى أخبره بأن ذلك العضو المزروع . . من جسد آخر فلفظه ولم يتقبله ؟

لابد أن لكل جسد شفرة خاصة فى تكوينه تختلف عن باقى أجساد البشر . . وأنها هى التى توجد الالتئام أو النفور . . بل إنه أحيانا تنقل الكلى من أم إلى ابنها أو ابنتها أو العكس . . ومع هذا يرفض جسد الابن كلية الأم . . ويرفض جسد الأم كلية الابنه . . أليس هذا دليلا على أن لكل جسد شفرة خاصة لا يتشابه فيها مع جسد آخر ؟

أليس لكل صوت بصمة . . ولكل أسنان بصمة . . وكلما تقدم العلم كشف الله سبحانه وتعالى لنا من أسرار الجسد البشرى . . ما يجعلنا نعلم جميعا أن كل إنسان مميز عن الآخر . . وأنه لايوجد إنسان ـ مع وحدة التكوين الموجودة فى البشر جميعا ـ يشبه إنسانا آخر فى تفاصيل تكوينه .

ألا يكفى هذا دليلا على أن قدرة الحق سبحانه وتعالى . . التى ميزت تكويننا عن بعضنا البعض . . قد فعلت ذلك لنُبعث يوم القيامة كل منا بذاته التى كانت موجودة فى الدنيا . . ليحاسب على ما قدمت يداه .

أفلا نتدبر قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾

(الآية ٢١ سورة الذاريات)

بهذا نكون قد وصلنا إلى أن الزمن خلق من خلق الله . . وأنه سبحانه وتعالى يستطيع أن يخرجنا من قوانين الزمن ونحن أحياء . . كما حدث لأهل الكهف . . أو ونحن أموات . . كما حدث للرجل الصالح . . الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه . . وأن اليوم عند الله سبحانه وتعالى . . لايوجد له وقت محدد . . فالله جل جلاله يخلق ما يشاء . . وهو قادر على أن يخلق يوما مدته إثنتا عشرة ساعة . . وأن يخلق يوما مدته عام . . وأن يخلق يوما مدته ألف سنة . . وأن يخلق يوما مقداره خمسون ألف سنة . . وأن يخلق يوما يستمر مليون سنة .

ويوم القيامة خلقه الله سبحانه وتعالى ليستوعب كل الأحداث التى ستقع فى هذا اليوم . . من حشر . . وحساب . . وقضاء ، وكل الأحداث التى قدرها الحق تبارك وتعالى أن تقع فى هذا اليوم ستقع . . وأن كل إنسان مميز عن كل البشر تمييزا يجعله يبعث يوم القيامة بذاته . . وهى نفس الذات التى قضت رحلة الحياة الدنيا . .

ويبقى أن نستعرض بعض ما جاء فى القرآن الكريم . . عن ذات اليوم . .

الفصل الثانى



الحياة .. والموت

قبل أن نتحدث عن يوم القيامة والأحداث التى ستقع فيه .. لابد لنا من حديث عن حياة القبر .. أو الحياة البرزخية ..

الله سبحانه وتعالى حدد مراحل الحياة فى آيات كريمة .. فقال تبارك وتعالى عن الناس عندما تبعث يوم القيامة :

﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴾

(الآية ١١ سورة غافر)

ولكن الآية الكريمة لم توضح لنا كيفية حدوث ذلك أوترتيبه .. فتأتى الآية الثانية فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

(الآية ٢٨ سورة البقرة)

إن الحق سبحانه وتعالى .. حدد لنا فى هذه الآية الكريمة مراحل الحياة كلها ألى يوم القيامة مرتبة .. أولا .. كنا أمواتا ثم أحيانا الله سبحانه وتعالى .. ثم يميتنا ، ثم يبعثنا أحياء يوم القيامة ليتم الحساب .

نلاحظ هنا أن حلقة الحياة فى الدنيا قد بدأت بالموت ولم تبدأ

بالحياة . . وكان من المفروض فى مفهومنا نحن على الأقل أن تبدأ بالحياة . . وبداية الخلق كما نفهمها هى الحياة . . ولكننا بهذا المفهوم . . لانكون قد عرفنا معنى الحياة .

الناس تأخذ أو تفهم معنى الحياة على انها الفترة التى يكون فيها للانسان وجود . . ومعنى الموت على أنه عدم أو لاشىء . . والحقيقة غير ذلك تماما . . فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾

(الآية ٢ سورة الملك)

إذن الموت ليس عدما ، ولكنه خلق من خلق الله كالحياة تماما . . فالله سبحانه وتعالى كما خلق الموت خلق الحياة . . كلا هما خَلْقٌ من خلق الله . . ولكل خلق قوانينه وحياته ومايتم فيه ، والله سبحانه وتعالى وحده هو القادر على أن ينقل مخلوقاته من عالم الموت الى عالم الحياة . . أو ينقلها من عالم الحياة الى عالم الموت .



ماهو معنى الحياة ؟ .. وماهو معنى الموت ؟ .

بعض الناس يقولون إن الحياة هى الحس والحركة .. وأن كل شىء لاحس فيه ولاحركة ظاهرة لنا .. ليس فيه حياة كالجماد .. نقول إن هذا ليس هو الحقيقة .. فكل شىء فى الدنيا فيه حياة .. ولكنها حياة تلائم مهمته .

والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾

(من الآية ٤٤ سورة الاسراء)

إذن كل مايطلق عليه شىء .. يسبح بحمد الله .. الأرض تسبح .. والجبال تسبح ، والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾

(من الآية ٧٩ سورة الأنبياء)

ويقول جل جلاله :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ ﴾

(الآية الأولى من سورة الجمعة)

بل إن الأمر يتعدى ذلك . . إلى أن هذه الأشياء التى نراها أمامنا جامدة بلاحس ولاحركة ، لها عواطف تعبر عنها بالبكاء أو بغير ذلك . . ألم يُصْدِرْ جذع النخلة الذى كان يستند عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وهو يخطب فى المسجد أنينا حين تركه رسول الله عليه الصلاة والسلام . . ليخطب على منبر بناه المؤمنون ؟ . . ألم يقل الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز :

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾

(الآية ٢٩ سورة الدخان)

الأرض تبكى . . والسماء تبكى . . والجبال تسبح . . والحصى يسبح . . فقد سمع رسول الله صلى عليه وسلم تسبيح الحصى فى يديه الشريفتين . . كل شىء فى هذا الكون فيه حياة تناسب مهمته . . فكل شىء فيه حس وحركة . . لاندركها نحن ولكنها موجودة .

ألم نعرف فى المدرسة . . حينما درسنا المغناطيسية أن ذرات الحديد عندما تمر عليها بمغناطيس تأخذ شكلا معينا . . لقد جاءوا لنا بأنبوبة ذرات الحديد . . ومروا عليها بمغناطيس أمامنا . . فأخذت الذرات شكلا معينا وترتيبا معينا . . وخواص معينة بفعل المغنطة .

إن هذا الذى حدث أمامنا فى ذرات الحديد . يحدث نفسه فى قضيب الحديد الذى لم يفتت الى ذرات . . ولكننا لانراه . . إننا

نمر بالمغناطيس فوق قضيب الحديد فيصبح ممغنطا .. ولكن هل نرى مايحدث لذراته من إعادة الترتيب ؟ .. طبعا لا .. ولكن التجربة العلمية أثبتت أن ذلك يحدث رغم اننا لانراه .

واذا قرأنا الآية الكريمة :

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾

(الآية ١١ سورة فصلت)

يجب أن نلتفت الى قول الحق سبحانه وتعالى : « قالتا » .. لنعرف أن للأرض والسماء لغة تتحدثان بها .. بل انهما يسمعان أيضا .. مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾

(الآية ١ و٢ سورة الانشقاق)

ومعنى أذنت أي سمعت بأذنها فانقادت لأمر الله تبارك وتعالى بمجرد سماعها .. فأذنت أي استمعت لربها وأطاعت أمره . فيما أمرها به من الانشقاق يوم القيامة ..

وهكذا نرى أن كل شيء في هذا الكون له حياة تناسب مهمته .. وأن الاعتقاد بأن الجماد ميت لا حياة فيه اعتقاد غير صحيح .

الله سبحانه وتعالى خلق حياتين .. الحياة الدنيا .. وهي

حياة موقوته . . لكل شىء فيها نهاية . . نصيب كل منا فيها مختلف . . هناك من يعيش ساعات . . ومن يعيش يوما . .

ومن يعيش شهورا . . ومن يعيش سنوات . . ومن يعيش حتى يبلغ أرذل العمر . . وجعل نهاية الحياة الدنيا الانتقال الى عالم الموت . . وخلق الحياة الآخرة أبدية ليس فيها موت . . فعمر الموت ينتهى ببداية الحياة الآخرة . . ولايصبح هناك موت .

إن الله سبحانه وتعالى لفتنا الى أن الحياة الحقيقية للانسان ليست فى الدنيا . . ولكنها فى الآخرة . . لأن الحياة الآخرة أبدية فيها نعيم بقدرة الله سبحانه وتعالى . . لاتفارق النعمة فيها ولاتفارقك .

وخلق الحق تبارك وتعالى عالم موت قبل المجىء الى الحياة الدنيا . . وعالم موت عند الخروج من الحياة الدنيا وقبل بداية الآخرة . .

ولذلك يقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة العنكبوت)

والانتقال من الموت الى الحياة . . ومن الحياة الى الموت . . ثم من الموت الى الحياة الآخرة . . يتم باذن الله سبحانه وتعالى .

نأتى الى الآية الكريمة فى قوله تعالى :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

(الآية ٢٨ سورة البقرة)

الله سبحانه وتعالى حين خلق آدم .. خلق فى آدم ذريته كلها من آدم الى آخر من ستقوم عليهم الساعة .. مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾

(من الآية ١٧٢ سورة الاعراف)

ولكى نفهم هذا نقول : إن الحياة لايمكن أن تستمر إلا اذا كانت حلقاتها متصلة .. فحياتى من حيوان منوى حى من أبى .. وحياة أبى من حيوان منوى حى من جدى .. وحياة جدى من أبيه .. وحياة أبيه من أبيه ، وهكذا حتى نصل الى آدم .. ولو أن سلسلة الحياة انقطعت فى حلقة من حلقاتها ما استمرت .. فلو أن أبى مات قبل أن تنقل الحياة منه إلىّ .. ما وجدت وماجئت الى الحياة .

إذن فنحن موجودون منذ خلق آدم . . ولكننا موجودون فى عالم الذر . . وهو عالم تنطبق عليه قوانين الموت . . وعندما يأتى أمر الله ننتقل من عالم الذر إلى عالم الدنيا . . عالم الحياة بالاسباب . . ونقضى فى عالم الحياة الدنيا ماشاء لنا الله أن نقضى فيه . . ثم يأتى الأجل فننتقل الى عالم الموت . . ثم ننتقل بعد ذلك إلى عالم الحياة الآخرة . . وهذا هو معنى الآية الكريمة :

﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

(من الآية ٢٨ سورة البقرة)

الله سبحانه وتعالى . . كشف لنا برحمته أن الانسان ينتقل من الحياة الدنيوية الى الموت بطريقتين . . فالانسان حينما يحتضر يرى مالم يكن يراه . . ويعرف مصيره اما الى الجنة واما الى النار والعياذ بالله .

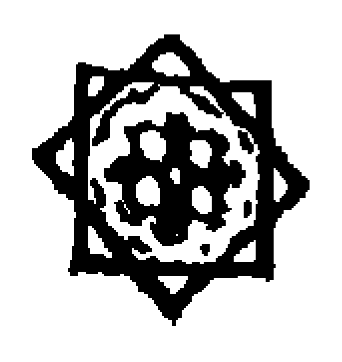
الصورتان اللتان أعطاهما لنا الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم . . هما صورة المؤمن . . وصورة غير المؤمن وهما يغادران الحياة الدنيا الى حياة البرزخ .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

(الآية ٣٢ سورة النحل)

هذه هى صورة المؤمن وهو يحتضر .. تحيط به ملائكة الرحمة .. ويلقون عليه السلام ويبشرونه بالجنة .. ولذلك يكون المؤمن سعيدا منبسطة أساريره .. لأنه ذاهب الى خير مما كان فيه .. انها ساعة بشارة .. ساعة يسر .. وساعة فرح يتمناها كل مؤمن .. أن يرى ملائكة الرحمة ويبشر بالجنة .





الموت عند الكافر

نأتى بعد ذلك الى الصورة الثانية .. وهى أعطاها لنا الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم للكافرين والعاصين .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴾

(الآية ٥٠ سورة الانفال)

فى هذه الآية الكريمة نعرف حالة الموت عند الكافر .. يرى ملائكة العذاب .. وبدلاً من أن يلقوا عليه السلام .. يواجهونه بالضرب على وجهه وعلى مؤخرة جسده .. وينذرونه بالنار وعذاب الحريق .. فيتمنى فى هذه اللحظة لو لم يولد ..

فى هذه اللحظات يحس بالجريمة الكبرى التى ارتكبها فى حياته .. وأن كل ماحصل عليه من متع من حرام .. لايوازى لحظة واحدة من العذاب .. فيتشنج وجهه ويملؤه الغم والهم .. الذى لن يزول عنه أبدا .. ويرى مقعده فى النار .. مصير أسود يتمنى أن يفلت منه ولكنه لايستطيع .. فقد خمدت بشريته .. وانتهت فترة الاختيار بالنسبة له .. وأصبح لا يملك لنفسه شيئا .. انتهت الارادة البشرية تماما وأصبح مقهورا لأمر الله.

وهناك آيات أخرى فى القرآن الكريم . . تحكى لنا كيف يواجه الظالمون لحظات الموت فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ﴾

(من الآية ٩٣ سورة الانعام)

هذه صورة أخرى من صور لحظات الاحتضار بالنسبة للظالمين الجبارين فى الأرض . . والملائكة يتحدونهم أن يخرجوا انفسهم من العذاب بما كان لهم من جبروت فى الأرض . وهم عاجزون طبعا . . لأن بشريتهم قد خمدت . ونفوذهم قد انتهى . . وكل شىء فيهم أصبح مقهورا لله سبحانه وتعالى . . بلا اختيار منهم .

وهكذا نعرف كيف ينتقل الصالحون الطيبون من الحياة الى الموت . . وكيف ينتقل الكافرون الظالمون من الحياة الى الموت .

الصالحون تحيط بهم ملائكة الرحمة . . والظالمون تضربهم ملائكة العذاب . . ثم تنتهى ساعة الاحتضار . . وتخرج الروح من الجسد . . ويموت الانسان .

ولكن هل الموت هو العدم ؟ . . لا . . انه خروج من عالم الحياة . . والحياة خروج من عالم الموت . . إن كلا منهما خروج

من عالم من خلق الله . . الى عالم آخر من خلق الله . . له قوانينه المختلفة . . وطريقة الحياة فيه مختلفة . . وما يخضع له الانسان فيه مختلف تماما عن قوانين الدنيا .

وهناك أدلة كثيرة . . على أن هناك حياة فى البرزخ . . تختلف عن الحياة الدنيا فى قوانينها ، وفيها يحيط بها ، وفيها يراه الانسان ويشاهده .

ولكن الله سبحانه وتعالى وان كان قد ستر هذه القوانين عنا . . إلا انه جل جلاله قد أعطانا فى القرآن الكريم أمثلة توضح لنا نواحى معينة فى حياة ما بعد الموت وما يحدث فيها .

وأول شىء فيها اننا بقوانين حياة البرزخ نرى مالم نكن نراه فى الدنيا . . فنحن فى الدنيا محدودون فى رؤيتنا . . ولكن بعد الموت ترفع الغشاوة عن أعيننا لنرى أشياء كثيرة . . مصداقا لقوله تعالى :

﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾

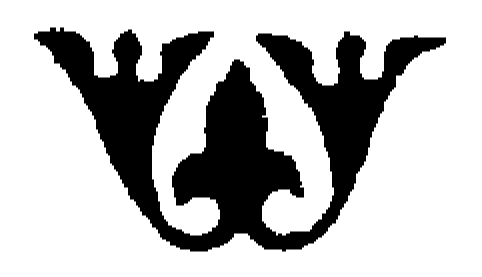
(الآية ٢٢ سورة ق)

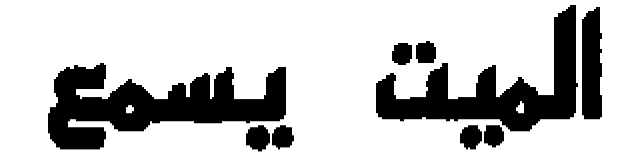
وهكذا منذ ساعة الاحتضار . . يرى الانسان مالم يكن يراه فى الحياة الدنيا . . لأن الله يكشف عنه غطاء الدنيا . . فيرى عالما جديدا . . هذا العالم موجود ولكنه لايراه خلال رحلته الدنيوية . . ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (الناس

نيام فإذا ماتوا انتبهوا) .

كيف يكون الانسان فى الحياة الدنيا نائما وينتبه فى الموت ؟ . . مع اننا نراه نائما أمامنا بلا حركة ؟!

الانتباه يحدث هنا . . لأنه رأى مالم يكن يراه . . وعرف أن كل ما أخبره به الله من غيب هو حقيقة واقعة وموجودة . . ولكنه كان محجوبا عنها . .





والانسان حين يموت يسمع مايقال حوله . . ولكنه لايستطيع أن يرد .

ففى غزوة بدر . . وبعد أن انتهت المعركة . . أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على القتلى من الكفار فقال : (بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم . . كذبتمونى وصدقنى الناس وخذلتمونى ، ونصرنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس) . . ثم أمر بهم فسحبوا الى قليب من قلب بدر . . فطرحوا فيه . .

ثم وقف عليهم فقال : (ياعتبة بن ربيعة ، وياشيبة بن ربيعة ، ويافلان ويافلان . . هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ، فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا) .:. فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه . . يارسول الله أتخاطب أقواما قد جيفوا . . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لايستطيعون الجواب)

وهكذا نعرف أن الميت يسمع ما يقال حوله . . ولكنه لا يستطيع الجواب . . وهذا دليل آخر على أن الموت ليس عدما . . ولكنه انتقال الى حياة أخرى لها قوانينها .

واذا قرأت القرآن الكريم . . تجد قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴾

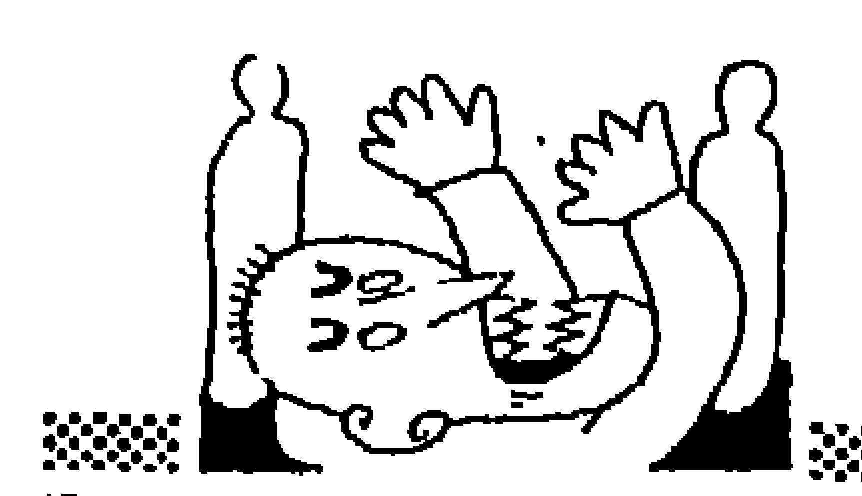
(الآية ١٣ سورة الممتحنة)

الله سبحانه وتعالى يحذر المؤمنين من أن يتخذوا الكفار أولياء . . لأن الكفار يئسوا من الآخرة . . فهم إما منكروها . . وإما لايرجون منها خيرا . . ولوكانوا يرجون الخير لعملوا من أجلها . . وهنا نتوقف عند قول الحق سبحانه وتعالى :

« كما يئس الكفار من أصحاب القبور » . .

لنتساءل : لماذا يئس الكفار ؟ والجواب :

الكفار هنا يئسوا لأنهم عرفوا يقينا مصيرهم . . وعرفوا يقينا أن الله لن يشملهم برحمته . . ومعرفة هذا تقتضى فهما . . لأن اليأس لايصيب الا انسانا يفهم أن مايرجوه مستحيل . . ولو كان الموت عدما مايئس الكفار وما أحسوا بشيء ، فالعدم ليس فيه أى نوع من الفهم أو الادراك أو الرؤية أو الاحساس بشيء .



ولكن الكفار أصحاب القبور أصابهم اليأس .. من أن يلاقوا أى نوع من الرحمة فى الآخرة .. وهذا لايمكن أن يحدث الا اذا كان هناك فهم .. وإدراك .. إذن الموت ليس عدما .. ولكنه عالم بقوانينه يستطيع الانسان فيه ان يفهم وأن يعرف ..

واذا أردنا دليلا اخر .. عما يحدث فى حياة البرزخ .. التى يكون الانسان فيها بعد الموت .. فلنقرأ قول الحق سبحانه وتعالى عن آل فرعون :

﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۖ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾

(الآية ٤٦ سورة غافر)

الحق تبارك وتعالى .. يخبرنا أن آل فرعون سيعرضون على النار كل صباح ومساء .. ولكن متى يعرض آل فرعون على النار .. هل هذا العرض فى الحياة الدنيا ؟ .. طبعا لا .. لأنه لو كان ذلك حدث .. ورأوا النار مرة واحدة وهم فى الحياة الدنيا .. لآمنوا على الفور .. بل لكانوا أشد الناس ايمانا لأنهم رأوا أشد العذاب .. ولما بقوا دقيقة واحدة على كفرهم .. ولكن آل فرعون ظلوا على كفرهم وعنادهم وعبادتهم للبشر ..

حتى أغرقوا فى البحر . .

ربما يقول قائل . . انهم يعرضون على النار فى الآخرة . . نقول : ان الآية الكريمة تخبرنا . . أنهم سيقادون الى أشد العذاب فى الآخرة . . وسيكونون فى الدرك الأسفل من النار .

إذن ففى الآخرة سيتم دخولهم الى النار . . أى أنهم سيذوقون العذاب فعلا . . ويصبح العذاب واقعا وليس عرضا . . فاذا كانوا لم يُعْرضوا على النار فى الدنيا . . ففى الآخرة سيدخلون الى أشد العذاب . . حيث يعذبون فعلا فى النار . . ويكون العرض على النار بين الموت والبعث . . أى وهم فى حياة البرزخ . . فإذا كان العرض سيتم بين الموت والبعث . . فلابد أن هناك نوعا من الحياة فى البرزخ يتم خلاله عرض آل فرعون على النار كل صباح ومساء .

يتضح مما قدمناه من أدلة وبراهين . . من القرآن الكريم . . ان الموت ليس عدما كما يعتقد بعض الناس . . ولكنه نوع من الوجود له قوانين خاصة . . يوجد نوع من الفهم فيها . . والا مايئس سكان القبور من الآخرة . . وما عرض قوم فرعون على النار . . لأن عرضهم يقتضى فهما بأنهم سيعذبون فيها . . وأنهم وهم يرون مصيرهم القادم الذى لن يفلتوا منه يحسون بهول ما ينتظرهم . . ويكون ذلك نوغا من العذاب لهم . . قبل عذاب الآخرة . . يجعلهم فى هم وكرب دائمين .

وهناك أشياء أخرى كثيرة . . تحدث للميت ويحس بها وهو

بين الدنيا والآخرة . . واذا كان الموت خلْقاً ، والحياة خلقاً . . فكلاهما فيه نوع من الاحساس يختلف عن الآخر . . وكلاهما له قوانينه . . وكلاهما بعيد عن العدم .

على اننا لابد أن نلتفت الى ان الحق سبحانه وتعالى . . يذكر الموت قبل الحياة فى آيات كثيرة من القرآن الكريم . . ذلك لأن الموت سابق للحياة . . وان الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا دائما الى الموت . . حتى اذا تذكرناه سارعنا الى الخير والايمان والعمل الصالح . . ولكنه سبحانه ليس فى حاجة الى ان يلفتنا الى الحياة . . فدوافع الحياة متمكنة فى النفس البشرية .

من منا اذا جاء أول الشهر ينسى أن يقبض مرتبه ؟ . . من منا لايحاول أن يحصل على أكبر حظ من الدنيا ؟

اذن فدوافع الحياة فى النفس البشرية كثيرة . . حتى تستطيع هذه النفس إن تؤدى مهمتها فى الكون . . وعمارة الأرض وبناء الحضارات . . ولكننا ونحن نتذكر الحياة فى كل ثانية ، ننسى الموت ولانذكره . . واذا حاول أحد أن يذكرنا به استعذنا بالله منه .

نحن محتاجون دائما . . الى ان نلتفت الى أن الموت حقيقة لاهروب منها . . ولذلك يأتى المولى عز وجل بذكر الموت أولا فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾

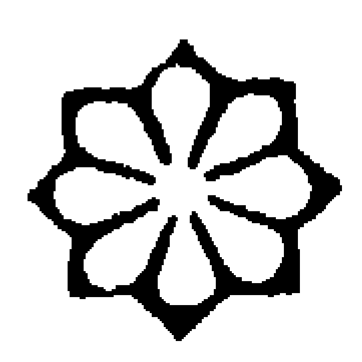
(من الآية ٢ سورة تبارك)

والموت هو نهاية الارادة البشرية . . فأنت فى الحياة لك إرادة ولك اختيار . . ولكن لحظة الموت تكون الارادة البشرية قد انتهت مهمتها . . وبالتالى لم يعد لها دور تؤديه . . لقد انتهى دورها .

الى هنا نكون قد بينا معنى الموت والحياة . . فكلاهما خلق من خلق الله . . ولكن الحياة التى تستمر . . هى حياة الخلود فى الآخرة . . أما الموت فإنه ينتهى عند البعث . . فليس بعد البعث موت . . ولكن خلود فى الحياة الآخرة .

والحياة ليست كما نفهمها حس وحركة . . بل كل شىء فى الكون له حياة تناسبه . . السموات والأرض والجماد . . وكل ما نعتقد نحن أنه لا حياة فيه . . فيه حياة تناسب مهمته فى الكون .

كما ان الموت ليس عدما . . بل هو نوع من الحياة التى لها قوانينها . . والتى فيها أشياء كثيرة أخفاها الله سبحانه وتعالى عنا .



الفصل الثالث



قبـل الحســاب

الله سبحانه وتعالى .. أنبأنا فى القرآن الكريم بأن الانسان يخرج من الحياة الدنيا بطريقتين .. إما تحيط به ملائكة الرحمة .. يبشرونه بالجنة وما ينتظره من نعيم .. وإما محاطا بملائكة العذاب والعياذ بالله .. يضربونه على وجهه وعلى مؤخرة جسده .. وينذرونه بالنار وعذاب الحريق .. فيتمنى فى هذه اللحظة لولم يولد .. ويحس بالجريمة الكبرى التى ارتكبها فى حق نفسه .

لكن بعض الناس يقول .. إن الله سبحانه وتعالى .. قد حدد طريقة الخروج من الحياة الدنيا إلى حياة البرزخ فى القبر على أساس ثلاث حالات ..

ففى سورة الواقعة .. يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾

(الآيات من ٨٨ ـ ٩٤ سورة الواقعة)

نقول : إن هذه الآيات الكريمة لم تبين الحالة التى يغادر عليها

الانسان الحياة الدنيا . . ذلك أن المقربين وأصحاب اليمين ، هؤلاء وهؤلاء تتلقاهم ملائكة الرحمة . . ويبشرون بالجنة . . ولكن لكل درجات تختلف عن الآخر .

فالمقربون أو السابقون لهم درجات عالية ومقام عال عند ربهم . . وأصحاب اليمين لهم درجات عالية . . ولكن أقل . . ولا يحسب أحد أن السابقين أو المقربين هم الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . وجاهدوا معه وحاربوا فقط . . وأن من جاء بعدهم . . لن يصل الى درجتهم مهما فعل . . فعدل الله سبحانه وتعالى . . يأبى أن يحرم محبا لله متفانيا فى عبادته . . من الدرجة العالية فى الآخرة .

لذلك نجد القرآن الكريم يخبرنا أن هؤلاء السابقين أو المقربين الذين هم أقرب خلق الله إلى الله . . سيكونون من الأولين ومن الآخرين . . ولكن كثرتهم ستكون من الأولين .

واقرأ قوله الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴾

(الايتان ١٣ و١٤ سورة الواقعة)

إن عدل الله سبحانه وتعالى . . يأبى إلا أن يجعل الباب مفتوحا لكل مجتهد فى عبادته . . راغب فى التقرب اليه . . ليجزيه أعلى الدرجات فى الآخرة . مادام قد أخلص لله . . ورعاه فى كل شئون حياته.

ولكن القول بالقلة والكثرة .. الكثرة فى الأولين ، والقلة فى الآخرين .. يلفتنا إلى إحاطة علم الله سبحانه وتعالى بأحوال خلقه .. وكيف أن الدنيا ببريقها ستجذب الناس أكثر وأكثر كلما تقدم الزمن .. بحيث يقل عدد المخلصين فى عبادة الله .. الحريصين على رضاه .. المجاهدين فى سبيله .

وقد أنبأنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلامات كثيرة .. تتحقق كلما اقتربت القيامة .. وكل هذه العلامات التى تحققت .. إنما ترينا أن البعد عن منهج الله سيزداد .. والمعصية ستكثر .. والاخلاص فى القلب سيقل .. حتى أن الناس يحاولون تفسير الدين على ما يرضى أهواءهم .. ومصالحهم الدنيوية .. وتزخرف المساجد .. بينما تخرب القلوب التى يملؤها الرياء والنفاق .. وسنتحدث عن ذلك بالتفصيل .

نعود الى ساعة الاحتضار .. تلك الساعة التى يكون فيها الانسان بين الموت والحياة .. نقول إن هذه الساعة إذا جاءت .. فإن الانسان يعلم يقينا أنه سيموت .. فليس فى هذه الساعة كذب .. ولا فيها إحساس بإمكان الهروب .

إن الانسان بما يراه وما يكشف له من الحجب فى هذه الساعة .. يعرف يقينا أن آخرته قد جاءت .. وهو يرى الملائكة حوله . سواء كانوا ملائكة الرحمة .. أو ملائكة العذاب والعياذ بالله ، ويسمعهم .. وفى هذه الحالة تكون بشريته قد خمدت .. فلم تعد له إرادة فى عمل دنيوى يمكن ان يفعله .

وفى هذه اللحظة ايضا لا تقبل التوبة .. لأنه مادام الانسان قد رأى ملائكة الموت ، وعرف يقينا أنه سيموت .. فلا يوجد إيمان بالغيب .. وإنما يوجد يقين مرئى بالحقيقة .. وليس مع العين وما تراه إيمان .. فمتى رأت العين وشهدت فليس مع العين أين .. فالايمان هو بما لا تراه .. أما ما تراه وتشاهده فليس إيمانا .. ولذلك فلا يمكن أن تقول لشخص جالس معك .. أنا أومن أنك جالس معى .. ذلك لأنك تراه جالسا أمامك .. فلا يعتبر هذا إيمانا .. ولا يعتبر هذا إلا مشهدا .



ايمان فرعون وعذابه يوم القيامة

وفرعون مثلا آمن وهو يغرق عندما رأى الموت كما يروى لنا القرآن الكريم فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

(من الآية ٩٠ سورة يونس)

فهل اعتبر ايمان فرعون وشهادته بالألوهية لله سبحانه وتعالى وحده توبة مقبوله عند الله محت كل ذنوب فرعون .. وجعلته من أهل الجنة ؟ .. خصوصا أنه بعد هذه التوبة مباشرة غرق .. أى أنه لم يعش .. ولم يمتد أجله ليرتكب ذنوبا أخرى .. نقول : إن القرآن الكريم قد أنبأنا بما سيحدث لفرعون يوم القيامة فى قوله جل جلاله :

﴿ يَقۡدُمُ قَوۡمَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَأَوۡرَدَهُمُ ٱلنَّارَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡوِرۡدُ ٱلۡمَوۡرُودُ ﴾

(الآية ٩٨ سورة هود)

أى أن فرعون سيكون قائدا يوم القيامة لقومه الذين عبدوه واتخذوه إلها ليدخلهم النار .. إذن عندما تأتى ساعة الاحتضار لا تنفع التوبة ولا تقبل . لأن الانسان انتقل من مرحلة الايمان

بالغيب ، إلى مرحلة المشاهدة اليقينية . . ورأى يقينا ما أنبأه به الله سبحانه وتعالى غيبا . . . ولكنه لم يؤمن به .

ساعة الاحتضار . . تعرض على الانسان حياته كلها ويعرف مصيره . . ولذلك ترى وجوها مشرقة . . ووجوها عابسة متشنجة .

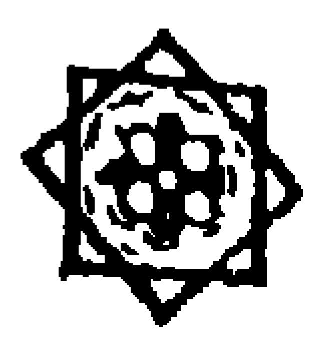
الذين بشروا بالنعم تستشرق وجوههم . . وتنبسط أساريرهم . . لأنهم عرفوا أنه ذاهبون إلى نعيم خير مما كانوا فيه وعاشوا فيه . . فيتطلعون إلى ما هو قادم باطمئنان وسرور وانشراح صدر .

أما الذين يرون أمامهم العذاب ونار جهنم . . ويعرفون أنهم ذاهبون إلى شر كبير . . فإن وجوههم تتشنج وتكفهر . . وهم يبحثون عن مخرج . . فلا يجدون مخرجا . . وتقبض أرواحهم وهم على هذه الحالة . . فيكون التشنج والعصبية وعلامات الفزع واضحة على وجوههم . .

على أننا لابد أن نعرف . أنه إذا كان هناك طريقان لا ثالث لهما لمغادرة الحياة الدنيا . . هو إما أن نكون محاطين بملائكة الرحمة ، وإما بملائكة العذاب . . فليس معنى هذا أن كل المؤمنين . . وكل الكافرين والمنافقين سيكون أخذهم على درجة واحدة . . فكل إنسان مرهون بعمله . . ولذلك فهناك من النعيم درجات وهناك من العذاب درجات حتى في ساعة الاحتضار

ويعض الناس يتساءل : هل يشعر المحتضر بما حوله ؟ . .

وهل يشعر الميت بما حوله ؟ نقول نعم يشعر .. لأن هناك فرقا بين النفس الواعية والاحساس الجسدى .. النفس الواعية شيء .. والاحساس الجسدى شيء آخر تماما ..



ومعنى أن الجسد قد مات . . والاحساس الجسدى قد انتهى . . لا يعنى أن الوعى النفسى قد ذهب . . ذلك ان الانسان تكون قد انقطعت وسائل الاختيار فى ذاته . . ولم يعد له اختيار . . ومن هنا فإن كل ما يحدث له يتم قهرا . . فلا هو يستطيع أن يتداركه . . ولا هو يستطيع ان يدفعه عن نفسه . . ولا هو يستطيع أن يهرب منه . . ولكن فى نفس الوقت النفس الواعية موجودة . . ترى ولكنها لا تستطيع أن تفعل شيئا . . وتشاهد شريط حياتها أمامها . . دون أن تستطيع أن تحكى .

ولقد قرب العلم هذا إلى أذهاننا . . فالصورة لا تفنى وكذلك الصوت . . فإذا كان الانسان قد وصل بعلمه المحدود . . إلى أن يسجل الصوت والصورة على شريط يحتفظ به ما شاء . . ويعرضه أمامه ويسترجعه وقت ما شاء بحيث أننا نستطيع أن نرى أناسا . . انتقلوا إلى الآخرة منذ سنوات طويلة . . ومع ذلك نسمعهم ونراهم وهم يتحركون أمامنا . . إذا كنا نستطيع أن نرى أفلاما تسجل أحداثا بالصوت والصورة مر عليها عشرات السنين . . ومع ذلك نراها ونسمعها . . وكأنها تحدث أمامنا .

إننا نستمع مثلا إلى الآذان أو القرآن الكريم . . يُتْلَى بصوت

المرحوم الشيخ محمد رفعت .. أو غيره من مشاهير القراء .. وهذا أمكن بالقدرة البشرية .. أفنستكثر على قدرة الله سبحانه وتعالى أن يكون لكل منا شريط فيه حياته الدنيوية يعرض عليه فى الآخرة ؟ إذا كنا نحن كبشر نسجل بالصوت والصورة .. ونسمع أحاديث الموتى .. التى سجلت لهم أثناء حياتهم .

وإذا كان العلم الآن بعد أن اثبت أن الصوت لا يفنى .. يحاول أن يأتينا بأصوات أولئك الذين عاشوا قبلنا بقرون .. والمشكلة التى تقف أمامهم .. هى أن هذه الأصوات مختلطة فى الأثير بشكل يجعل فصل بعضها عن بعض .. عملية غير ممكنة .

واذا كان العلم قد وصل إلى نوع من الأفلام .. تستطيع ان تظهر لك صورة الأشخاص الذين كانوا جالسين فى مكان ما بعد أن غادروه بساعات طويلة .. اذا كانت هذه هى إمكانيات البشر .. فكيف بامكانيات الله سبحانه وتعالى وقدرته ؟





إذن مسألة أن يرى الانسان .. شريط حياته وهو يحتضر ليست بعيدة على العقل بعد التقدم العلمى الذى قرب الصورة إلى أذهاننا . ولكن الانسان من بداية الاحتضار .. تخمد إرادته البشرية .'. فهو لا اختيار له .. إذا أراد أن يحرك قدمه لا تطيعه .. وإذا أراد أنْ ينطق بلسانه لا يخضع لارادته .. وإذا أراد أن يفتح عينيه لا تستجيبان له .. ذلك أن هذه الأشياء كلها .. أى كل ما فى جسد الانسان .. يخضع له فى الدنيا بإرادة الله ..

فاليد قادرة تطيع صاحبها إذا أراد أن يعين إنسانا على عبور الطريق .. كما أنها قادرة على أن تضرب إنسانا .. أو تؤذيه أو تقتله .

واللسان قادر على أن يقول كلمة الايمان .. وقادر على أن يقول كلمة الكفر والعياذ بالله .. ذلك لأنه مسخر لارادة الانسان فى الحياة الدنيا .. فى فترة الاختبار التى وضعها الله سبحانه وتعالى لعباده ليجازيهم بعد ذلك بالجنة أو بالعذاب فى النار .

فالحياة الدنيا بكل من فيها وما فيها .. لا تخرج فى مضمونها عن أنها فترة من الزمن .. تنقضى لتخرج منها إما حاملا

حسناتك .. وإما حاملا سيئاتك ومعاصيك .. أما غير ذلك فلا شيء ..

وفي ذلك يستوي من أُعْطِيَ من الدنيا .. ومن لم يجد فيها ثمن طعامه .. كلاهما لا يأخذ منها شيئا إلا العمل الصالح .. وكلاهما يستوي في لحظه الاحتضار .. ويصبح لا حول له ولا قوة .. مرهون بأعماله .. حتى أقوى الأقوياء .. وأغنى أغنياء الأرض .. يغادرها وليس معه إلا عمله .. وهذا معنى خمود البشرية لينتهي كل شيء لك فيه اختيار .. أولك فيه متعة .. أولك فيه قدرة .. وتصبح مقهورا لله سبحانه وتعالى .

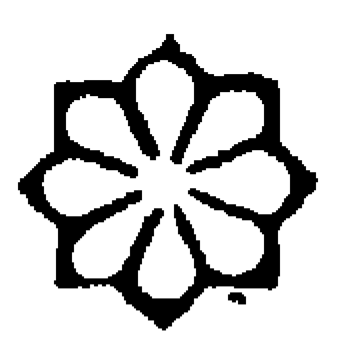
في هذه اللحظة يكون الله وملائكته أقرب إلى المحتضر من كل من يحيطون به من أبنائه وأقاربه .. وفي ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

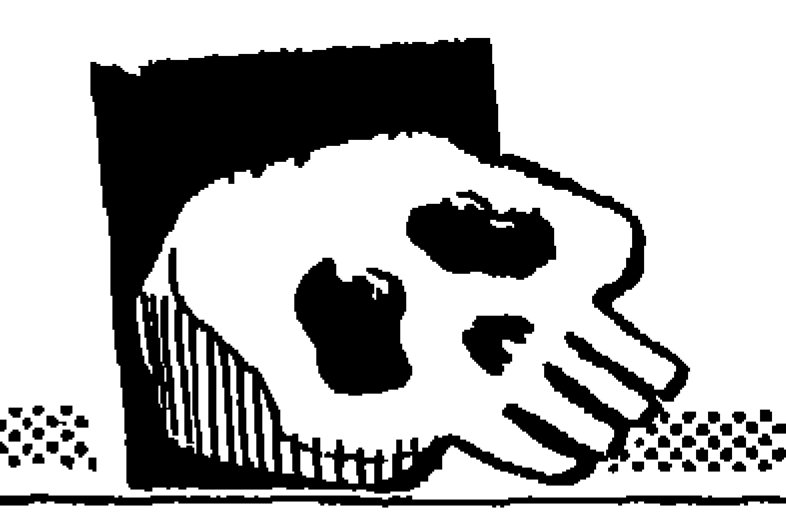
﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾

(الآيات من ٨٣ ـ ٨٥ سورة الواقعة)

نلاحظ في الآيات الكريمة .. قول الحق سبحانه وتعالى : « فلولا إذا بلغت الحلقوم » .. أي أن الروح لم تغادر الجسد كلية .. ولكنها وصلت إلى الحلقوم .. وهو آخر مراحل خروجها من الجسد .. أي ساعة الاحتضار .

إذن الحديث هنا ليس بعد قبض الروح .. ولكن أثناء قبضها ساعة الاحتضار .. يكون الله سبحانه وتعالى وملائكته أقرب الى العبد المحتضر من كل المحيطين به .. ولا يؤخذ القرب والبعد هنا على أساس المسافة .. ولكن يؤخذ على أساس الوعى ..





فالمحتضر يحس ويرى من ملكوت الله . . ما لا يحسه ولا يراه ممن هم حوله . . فكأنه يعيش فى هذا الملكوت ولا يعيش معهم . . وكأن كل شئ أصبح حقيقة واقعة مما كان غيبا عنه . . ومادام قد أصبح حقيقة واقعة ومشهودة . . فقد انتهى وقت الايمان . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الانعام)

وينتقل الانسان من الحياة الدنيا . . إلى حياة البرزخ التى يبقى فيها حتى يوم البعث .

وكما قلنا إن حياة البرزخ لها قوانينها كما بينا . . وأول هذه القوانين أنه لا زمن فيها . . فلا يحس الانسان فيها بالزمن . . ولا تسرى عليه قوانينه . . بل إن الذين ماتوا من عهد آدم اذا بعثوا . . فإنهم يحسبون أنهم قضوا يوما أو بعض يوم . . وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ

كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

(الآيتان ٥٥ و٥٦ سورة الروم)

وهكذا نعرف أن الانسان عندما ينتقل من الحياة الى الموت . . لا يحس بالزمن الذى أمضاه فى القبر . . ويظن وقت البعث أنه أمضى ساعة أو بضع ساعات . . وحين ينزل الميت إلى القبر . . يكون قد عرف مصيره حتما . . ويُرى للانسان مقعده من الجنة ومقعده من النار . . فأهل الجنة يرون مقعدهم من الجنة . . ومقعدهم من النار . . وأهل النار يرون مقعدهم من النار ومقعدهم من الجنة . .

بعض الناس قد يستغرب هذا الكلام . . ولكن لذلك حكمة كبيرة . . هى أن الله سبحانه وتعالى قد خلق لكل خلقه أماكن فى الجنة وأماكن فى النار . . فلو أن كل الخلق عصوا . . من عهد آدم حتى يوم القيامة لدخلوا جميعا النار . . ووجدوا أماكنهم فيها . . ولو أن كل الخلق آمنوا واتقوا . . منذ عهد آدم الىّ يوم القيامة . . لدخلوا الجنة جميعا ووجدوا أماكنهم فيها . . فالله سبحانه وتعالى . . أعد لكل واحد من خلقه مكانا فى الجنة . . ومكانا فى النار . .

ولكن لماذا يُرِى الله سبحانه وتعالى أهل الجنة مقاعدهم فى النار ؟ . . مع أنهم من أهل النعيم !؟ نقول إن ذلك زيادة فى النعمة . . لأن أهل الجنة اذا رأوا أماكنهم فى الجنة فقط . . عرفوا النعيم الذى ينتظرهم ، ولكنهم لم يعرفوا العذاب الذى نجوا منه . . ولذلك فإن رؤيتهم لمقاعدهم فى النار تريهم الهول العظيم والعذاب الدائم . . الذى نجوا منه . . فيحسوا بالنعمة الكبرى فى نجاتهم من النار . . وبذلك تزداد فرحتهم . . ويتضاعف شعورهم بالنعمة . . وهم يرون ما كان سيصيبهم . . وأنجاهم الله منه برحمته . . وبهذا يعرفون الفوز العظيم الذين حصلوا عليه .

هذا بالنسبة لأهل الجنة . . أما بالنسبة لأهل النار . . فإن رؤيتهم للنار تجعلهم يحسون بالعذاب العظيم الذى ينتظرهم . . ولكن هذا لا يكفى . . فالله سبحانه وتعالى يريد أن يزيد إحساسهم بالعذاب . . ويريد أن يملأ قلوبهم بحسرة فوق الحسرة التى ملأت القلوب عند رؤيتهم لجهنم . . ولذلك يريهم مقاعدهم من الجنة . . ليعرفوا مدى النعيم الذى حرموا منه . . فتزداد الحسرة فى قلوبهم وتتضاعف . . وهم يرون العذاب الذى سيلقونه والنعيم الذى حرموا منه . .

ولكن ماذا سيحدث يوم القيامة بالنسبة لأماكن اهل النار التى لم يشغلوها فى الجنة ؟ . . إن الله سبحانه وتعالى يورثها لأهل الجنة فيعطيهم أماكنهم . . ويزيدهم عليها من أماكن أولئك الذين كان مصيرهم جهنم والعياذ بالله .

وهكذا لا يأخذ أهل الجنة نصيبهم فقط . . بل يأخذون ويرثون أنصبة أخرى كانت مخصصة لعباد الله الذين كفروا وعصوا فأصبحوا من أهل النار . . وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

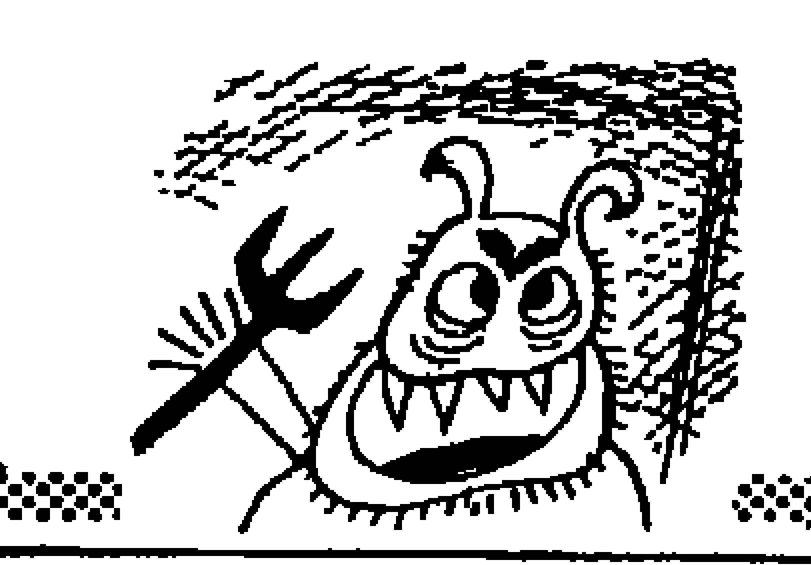
(من الآية ٤٣ سورة الأعراف)

ويقول جل جلاله :

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾

(الآية ٧٤ سورة الزمر)

ولابد أن نلاحظ هنا استخدام لفظ الميراث والتوريث . . ذلك أن الانسان لا يرث . . إلا ما كان مخصصا لغيره . . فكأن أصحاب الجنة يأخذون مقاعدهم فيها . . ثم يرثون ما كان مخصصا للذين عصوا الله وكان مصيرهم النار . . وهذا زيادة فى التنعيم والنعمة .فالله سبحانه وتعالى وهم فى قبورهم أراهم مقاعدهم من الجنة . ويوم القيامة يزيد عليها فيرثون الجنة كلها.



والناس تتساءل عن عذاب القبر .. وهذا السؤال يصادفنا كثيرا .. ووجه التساؤل هو : هل يعذب الانسان مرتين ؟ .. مرة وهو فى قبره ومرة بعد الحساب .. أم أن العذاب يأتى بعد الحساب ؟ .

وقبل أن نجيب على هذا السؤال نقول : إن مجرد رؤية الانسان مقعده من النار .. ومعرفته يقينا مصيره إليها عذاب ليس بعده عذاب .. لأن ترقب البلاء وانتظاره أشد عذابا من وقوعه .. مثلا .. إذا عرفت أن ابنك سيقتل فى حادث سيارة بعد عام أو عامين .. ماذا يكون حالك ؟ .. ستعيش فى جحيم هائل .. وأنت تنتظر يوما بعد يوم وقوع الحادث .. ولذلك فمن رحمة الله علينا أنه حجب عنا أحداث المستقبل .. حتى لا تصبح حياتنا عذابا مستمرا .. ونحن نتوقع المكروه الذى سيقع ونترقبه .

إن حَجْبَ المستقبل عنا أعطانا استمتاعا بالحياة .. ما كان يمكن أن يحدث لو أننا عرفنا الغيب .. وكل الأحداث التى ستقع فيه .

انه يكفى عذابا لأهل النار .. وهم فى قبورهم .. أن يروا الجحيم الذى سيخلدون فيه .. وأنهم كلما التفتوا يمينا

أو يسارا . . رأوا النار التى سيعذبون فيها . . وعرفوا حتما أن أمر الله سبحانه وتعالى نافذ وواقع .

أما مسألة أن يتم العذاب فى القبر بشكل مباشر . . فالعذاب سيقع بعد الحساب . . أى بعد أن يحاسب الناس يوم القيامة . . والقرآن الكريم عندما يعرض لنا قصة فرعون . . ودخوله ومن اتبعه النار . . يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾

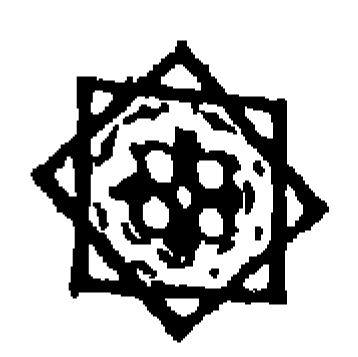
(الآية ٤٦ سورة غافر)

ولو كان هناك عذاب فِعْلِىٌّ فى القبر . . لكان آل فرعون أول من عذبوا وأحرقوا فى قبورهم . . ولكن عرضهم غدوا وعشيا على النار عذاب لهم وإن لم يدخلوها . . ذلك أن مجرد رؤيتهم للنار . . تجعلهم يصرخون ويستغيثون من هول ما هو قادم . . وكذلك يصرخ فى قبره من يرى العذاب القادم . . لأنه يعرف ما هو ذاهب اليه .

وبالاجمال نقول : لقد تحدثنا عن أن الانسان ساعة احتضاره تنتهى بشريته . . ومعنى أن بشريته تنتهى . . أنه خرج من الاختيار الى القهر ، فأصبح مقهورا فى كل شىء . . بعد أن كان مختارا فى الدنيا . . وأن الانسان وهو يحتضر يرى مقعده من الجنة أو مقعده من النار . . وتكون هذه الرؤية إما بشرى . . تستريح

لها نفسه وتنفرج أساريره . . وإما نذير يجعل وجهه ينقبض . . ويظهر عليه الخوف والفزع . . وأنه فى البرزخ لا زمن . . وأن الناس فيِ قبورهم يرون مقاعدهم من الجنة . . أو من النار . والعياذ بالله . . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار)



الفصل الرابع



البعث من القبور

عندما تأتى نهاية الدنيا .. ينقلب كل شيء .. كل الذى نشهده الآن على الأرض يختفى وينتهى .. الشمس والجبال والبحار والسماء والأرض .. كل هذا الكون مخلوق بالأسباب .. وفيه أقوات وأسباب للبشر تعطيهم إذا أخذوا بها .

هذه هى الحياة الدنيا .. فيها أسباب إذا أخذ الناس بها أعطتهم .. وإذا لم يأخذوا بها لا تعطيهم .. كما سبق أن بينا .

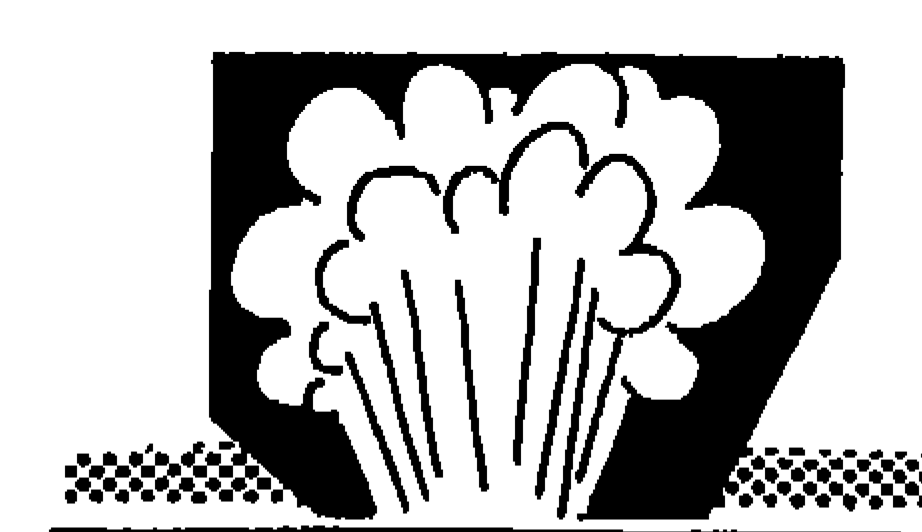
ولكن كون الأسباب هذا ينتهى .. ويدمر كل شيء يوم القيامة .. لأن هناك انتقالا الى حياة أخرى .. ليس فيها أسباب .. ولكن كل شيء يأتى من المُسَبِّبِ مباشرة .. وهو الله سبحانه وتعالى .

إنه بمجرد أن يخطر الشيء على بالك تراه أمامك .. الله سبحانه وتعالى حدد موعدا ليوم القيامة لا يعلمه أحد .. ولكنه رحمة منه .. أعطانا علامات الساعة بما أخبرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم .. من أنها ـ بشكل عام ـ اختلال الموازين الأخلاقية فى الكون .. وهى الموازين التى أتى بها منهج الله سبحانه وتعالى .. وإنها كانت لابد أن تحكم حياة الناس لينصلح الكون .

فنجد المنكر مباحا .. يتفاخر الناس بأنهم يفعلون ما يغضب

الله . . وتجد المعروف مستنكرا بين الناس . . فإذا أديت الأمانة اتهموك بالجهل وعدم الدراية !! لأن الكون كله يسير على عدم الأمانة . . فيحصل الناس على المال الحرام . . ويتفننون فى ذلك ويتفاخرون به . . ويبخل كل انسان بما عنده . . فلا يعطى الصانع صنعته حقها . . ولا الزارع حق الزرع . . ويرفض الناس أن يستخدموا ما وهبهم الله من قدرة ومال فى مساعدة المحتاجين أو المظلومين .

ومن علاماتها أيضا أن يضيع الحق بين الناس . . ويصبح هوى النفس هو المتبع . . ويكون المنافق فى أعلى الدرجات الدنيوية . . أما صاحب الرأى فلا يلتفت اليه أحد . . ويعطى الشىء لغير أهله . . أى تسند الوظائف والمناصب ليس على أساس الكفاءة والخبرة . . ولكن على أساس الهوى الشخصى . . والقرب والبعد من أصحاب النفوذ . . عندئذ لايكون للكفاءة قيمة . . وينسب الشىء لغير أهله . . فنجد الناس يدعون أنهم فعلوا وهم لم يفعلوا . . ويدعى الانسان انه هو الأصيل فى الكون . . وان كل شىء خاضع لارادته وقدرته . . فتجد من يقول انتهى عصر الدين وبدأ عصر العلم !



الحق سبحانه وتعالى يعطينا فى القرآن الكريم علامة من علامات قرب الساعة .. وذلك فى قوله جل جلاله :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(من الآية ٢٤ سورة يونس)

ولو اننا تدبرنا معنى الآية الكريمة .. لوجدنا انه قبل يوم القيامة .. ستأخذ الأرض كامل زخرفها وزينتها .. وتكون فيها العمارات الشاهقة الحديثة .. والمدن الكبيرة .. وكل ما يزين الأرض للناس .. من زينة تحبب اليهم الحياة الدنيا .. وتريها لهم فى أبهى صورها .. وهذا لا يكون إلا بتقدم الحضارة .. بشكل يجعل الانسان قادرا على أن يحقق الكثير .. فيسافر من دولة الى أخرى فى وقت قصير .. ويستطيع أن يتحكم فى بيته .. بل وفى خارج بيته بالأزرار .. يدوس على زر فيأتيه الطعام .. ويضغط على زر آخر فينتقل من مكان الى مكان بمنتهى السهولة ، أى أن الحياة على الأرض ستكون قد بلغت قمة ما يسمونه التكنولوجيا التى تحقق للانسان رفاهية الحياة .

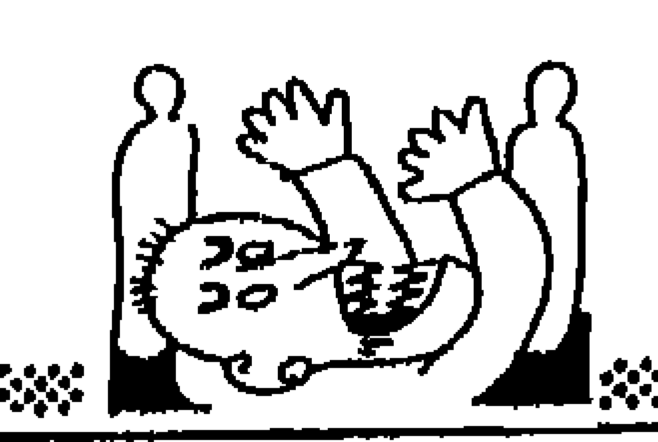
وقول الحق سبحانه وتعالى : « وظن أهلها انهم قادرون عليها ».. دليل على أن الناس سينسون الله جل جلاله وقدراته .. وانه هو الذى خلق هذا الكون .. وأوجد قوانينه وكل ما فيه .. وينسبون هذا لأنفسهم .. فيعتقدون أن لهم القدرة على أن يفعلوا ما يريدون بهذه الأرض .. وأنها أصبحت خاضعة لإرادتهم وسلطانهم بالعلم الذى حققوه .. بينما الأرض وكل من فيها وما فيها خاضع لإرادة الله وقدرته وحده .. هو وحده الفعال لما يريد .



حين ينسى الناس الله سبحانه وتعالى . . وتغرهم قدرتهم . . يأتى أمر الله . . وأمر الله يأتى ليلا أو نهارا . . لأن الليل والنهار دائمان على الأرض . . فلا يوجد ليل على سطح الكرة الأرضية دون نهار . . ولا نهار دون ليل . . بل هما موجودان معا . . حين يأتى أمر الله يكون الليل والنهار موجودان . . وقوله جل جلاله : « فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس » . . أى دمرنا كل ما عليها من زينة وزخرف . . فإذا بها جرداء لا شىء عليها . . وكل ما فعله الانسان خلال قرون طويلة . . يتلاشى ويختفى وينتهى فى لحظات . . ولكن متى يحدث ذلك ؟ .

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إذا رأيتم الناس أماتوا الصلاة . . وأضاعوا الأمانة . . وأكلوا الربا . . واستحلوا الكذب . . وباعوا الدين بالدنيا . . فهذه من علامات الساعة)

كما يعطينا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . من علامات الساعة : (أن يستخف الناس بالدماء . . فينتشر القتل والاغتيال . . وأن يكون فاسق القوم كبيرهم . . والمفروض أن الكبير سنا أو مقاما هو الذى يحافظ على الخلق الكريم . . وأن ينقص الناس الكيل والميزان أى يسود المجتمع أكل حقوق الناس وأن تنتشر الخرافات . . فيصدق الناس التنجيم وقراءة الطالع . . وغير ذلك من أعمال الدجالين) .

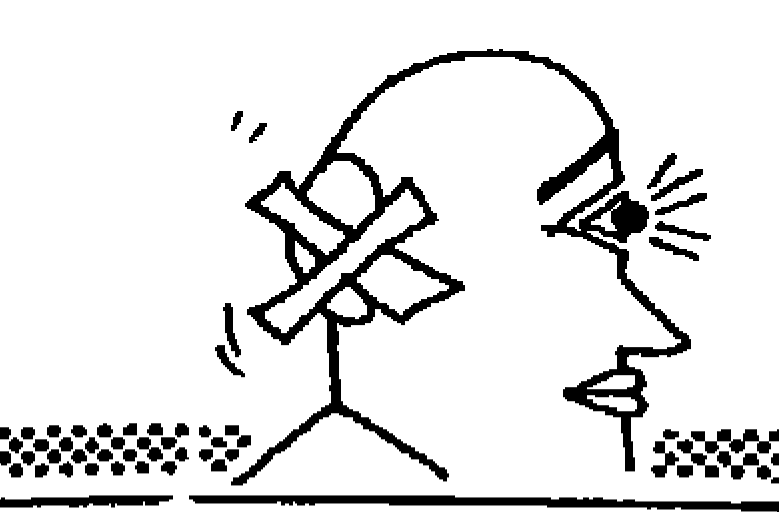


وهناك علامات كبرى للساعة .. لن نتعرض لها .. ولكن ماذا يحدث عندما تأتى الساعة ؟.. كما قلنا يُدمر كل شىء .. ويُنفخ فى الصور مصداقا لقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾

(الآية ٦٨ سورة الزمر)

إذن تكون قبل القيامة .. النفخة الأولى فى الصُّور .. فيصعق من فى السموات ومن فى الأرض .. أى تصيبهم الصاعقة .. والصاعقة لن تصيب الانس فقط .. ولن تصيب الانس والجان فقط .. ولكنها ستصيب كل خلق الله فى السموات والأرض .. بحيث تشمل الملائكة وغيرهم من خلق .. إلا من شاء الله له سبحانه وتعالى البقاء .. ثم تأتى النفخة الثانية .. فيقول الحق تبارك وتعالى : « فإذا هم قيام ينظرون ».. أى كل من شاء الله له أن يعود للحياة مرة أخرى .. وكل من سيشهد يوم القيامة .. يقومون ..



النظر .. قبل السمع

يقول الحق سبحانه وتعالى فى ختام الآية : « ينظرون » . . وينظرون لها معنيان . . المعنى الأول . . ينظرون : أى يرى بعضهم بعضا . . ففى الحياة الدنيا وفى حياة البرزخ . . هناك ما نراه وما لا نراه . . ولكن فى هذه اللحظة . . لحظة القيام . . يرى كل خلق الله بعضهم بعضا . . فنرى إبليس وذريته . . ونرى الملائكة . . ونرى أولئك الذين سبقونا الى الحياة . . منذ عهد آدم حتى الآن . . ونرى ما انقرض من أجناس . . نرى كل هذا .

والمعنى الثانى . . أن الله سبحانه وتعالى فى هذه الآية . . قدم النظر على السمع . . وفى آيات القرآن الكريم كلها . . السمع مقدم على البصر . . ما عدا آيتين .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة النحل)

وقوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة المؤمنون)

وقوله جل جلاله :

﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾

(من الآية ٣٦ سورة الاسراء)

وكل آيات القرآن الكريم .. التى ورد فيها السمع والبصر .. كان السمع مقدما على البصر .. لأن الأذن تؤدى عملها .. منذ أول لحظة الميلاد .. ولأنها لا تنام .. فهى أداة الاستدعاء .. والأذن هى الوسيلة للعلم والتعلم .. فأنت تسمع أكثر كثيرا مما تشاهد .. وأنت لكى تتكلم لابد أن تسمع أولا .. فعن طريق الأذن نتلقى العلم .. واللغة والكلام وغير ذلك .

ولكن فى آيتين كريمتين .. ذكر الله سبحانه وتعالى البصر قبل السمع .. وذلك فى قوله جل جلاله :

﴿ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة السجدة)

وقوله عز وجل :

﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾

(من الآية ٦٨ سورة الزمر)

نقول : إن السبب فى ذلك أن الرؤية تتم قبل السمع .. وعندما نخرج من القبر يوم البعث نرى أولا ثم بعد ذلك

نسمع . . نرى ماذا ؟ . . نرى الأرض تتشقق بسرعة ويخرج منها الناس . . ونرى مواكب من الناس . . قادمة كأنها الجراد المنتشر من كثافتها .

والقرآن الكريم يعطينا أكثر من صورة ليوم الحشر . . فيقول جل جلاله :

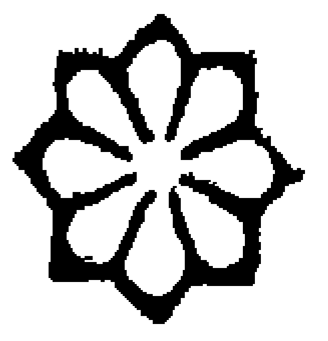
﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾

(الآية ٤٤ سورة ق)

ويقول جل جلاله :

﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴾

(الآية ٧ سورة القمر)





كيف سيكون الحشر ؟

هناك آيات أخرى فى القرآن الكريم تصف مشاهد يوم القيامة .

ولنا أن نتصور البشر كلهم . . من عهد آدم الى يوم القيامة وهم يخرجون من باطن الأرض دفعة واحدة . . إنها ستضيق بهم . . لأنهم عاشوا فيها . . فى أزمان مختلفة . . جيلا بعد جيل . . ولكنهم يخرجون منها ـ فى هذا اليوم دفعة واحدة . . ولذلك سمى يوم الحشر . . لأن الناس تحشر فيه حشرا .

فالحشر هو أن تضع فى المكان أكثر من سعته . . بحيث يكون كل شىء متلاصقا . . يتحرك بصعوبه . . ويجد مكانا بصعوبة . . هكذا سيكون الموقف ساعة الحشر . . أعداد هائلة من البشر والجن . . وغير ذلك من خلق الله . . كلها حشرت حشرا فوق الأرض التى عشنا فيها . . وفى هذا يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾

(الآية ٥٥ سورة طه)

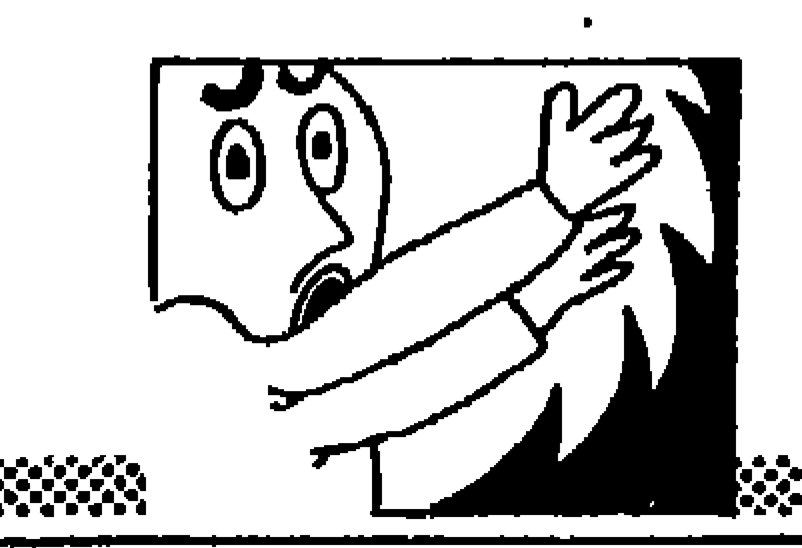
فإذا أردت أن تتخيل الصورة . . فانظر الى أسراب

الجراد . . وكيف تأتى فى أعداد هائلة مع بعضها البعض . . إنها تحجب قرص الشمس . . ولا يستطيع أحد أن يحصيها . . كذلك سيكون الناس يوم القيادمة . . يخرجون فى أعداد هائلة . . كأنهم أسراب لا نهاية لها من الجراد .

ولكن . . هل سيخرج كل انسان ويكون حرا يذهب حيث يشاء ؟ . . هل سنخرج جميعا لنختلط ببعضنا البعض فى فوضى هائلة ؟ . . لا . . لقد انتهى الاختيار الآدمى . . ولم يعد لنا اختيار فى أى شىء .

إن كل واحد منا مكلف به مَلَك . . أن يأخذه من هذه الأرض التى خرجنا منها . . الى أرض الميعاد . . التى سيحاسب فيها . . لا أحد يُتْرَكُ هكذا . . بل كل انسان له مكان محدد يخرج منه . . وَمَلك موكل به . . هو الذى يقوده . . ولا يستطيع الانسان الافلات أو الفرار من قضاء الله وقدره .





كل إنسان ومعه عمله

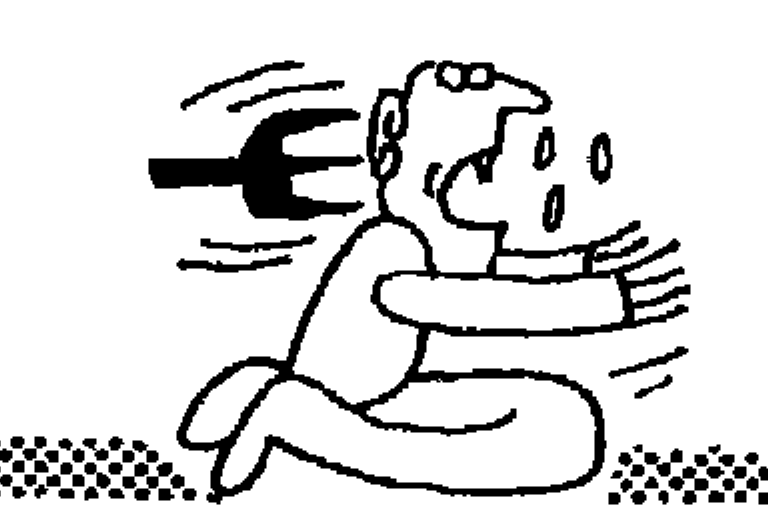
يخرج كل انسان ومعه عمله .. فلا نكون جميعا فى الخروج هيئة واحدة .. فهناك الذين عملوا الصالحات .. هؤلاء يخرجون خفافا .. لا يحسون بهول القيامة .. ولا بشدة الموقف .. لأن الله يخفف عنهم .

وهناك من ساءت أعمالهم .. والعياذ بالله ، وأولئك يخرجون وهم يتخبطون .. مصداقا لقوله تبارك وتعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾

(الآيتان ١ ، ٢ سورة الحج)

وهكذا نرى الناس .. يخرجون من قبورهم .. وهم يترنحون من هول الموقف .. وكأنهم سكارى .. لأن العذاب الذى ينتظر العاصين والمذنبين منهم عذاب أليم .. يزلزل أقوى النفوس .. وأقدرها على التحمل .



الكافر وماذا سيقول ؟!

أما الكفار فسيخرجون فى حالة رهيبة . . يتمنى الواحد منهم لو انه لم يوجد فى هذه اللحظة . . يتمنى أن يتحول الى حفنة من تراب . . يدوسها الناس بأقدامهم . . ولا يقف أمام الله ليحاسب . . واقرأ قول الحق جل جلاله :

﴿ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴾

(من الآية ٤٠ سورة النبأ)

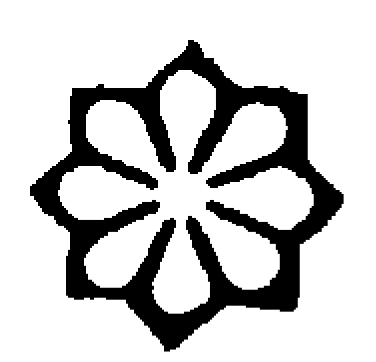
ساعة الخروج هذه . . يحاول كل انسان أن ينجو بنفسه . . ويحاول أن يتخذ وسيلة لعلها تنقذه من هول هذا الموقف . . ومن العذاب الذى ينتظره .

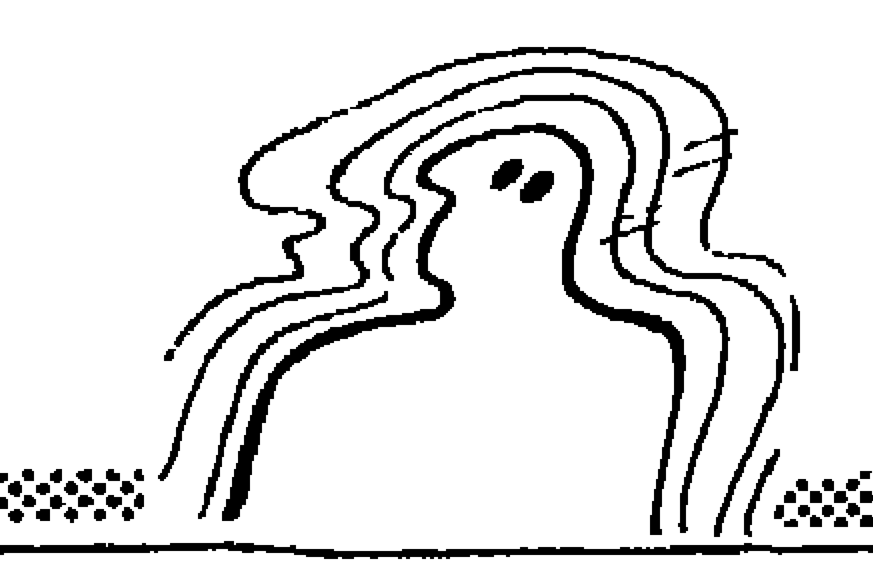
هنا يحاول العاصون والمذنبون . . والذين أسرفوا على أنفسهم . . أن يستغيثوا بالمؤمنين . . وهم يرونهم فى صورة مشرقة . . ولكن المؤمنين يفرون منهم . . فكل واحد فى هذا الموقف لا يهمه إلا نفسه . . وكل واحد يلتمس الطريق الى النجاة بأية وسيلة . . واقرأ قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾

(الآيات من ٣٤ ـ ٣٧ سورة عبس)

فى هذا اليوم لا ينفع أن يستنجد الانسان بأحد .. ولو كان أقرب الناس اليه .. فالأنساب فى هذا اليوم تلغى تماما .. وتبقى الأعمال فقط .. ولذلك إذا حاول أحد الظالمين أو الكافرين أن يستنجد بأمه أو بأبيه .. وهما أقرب الناس اليه .. فإنهما يفران منه من هول الموقف .. فالأب يفر من ابنه العاصى .. والأم تفر من ابنتها العاصية .. والأصدقاء يفر بعضهم من بعض .. لأن هذا اليوم فيه هول عظيم .





عندما تختفى الأنساب

إن كل عواطف القرابة والنسب بين الصالحين وغير الصالحين يزيلها الله من القلوب تماما . . ويجد الانسان نفسه مع عمله . . إن كان صالحا . . كان له بشرى ونورا . . وإن كان غير صالح . . كان له غما وهلعا وبؤسا يملأ الوجوه . . والحق تبارك وتعالى يقول :

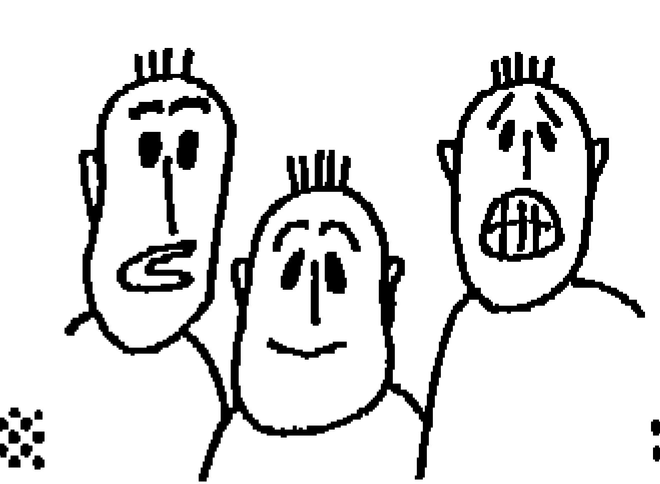
﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾

(الآية ١٠١ سورة المؤمنون)

فى هذا اليوم يلغى الحق سبحانه وتعالى الأنساب بين المؤمنين وغير المؤمنين . . فلا يكون هناك عاطفة نسب . . وإنما يكون النسب والقربى فى الايمان وحده . . ويكون المؤمن أخ للمؤمن . . بينهما تواد وتراحم . . أما العاصون الذين كانت تربطهم فى الدنيا صلات النسب أو القرابة أو الصداقة الحميمة . . والذين كانوا لا يفارق بعضهم بعضا . . فيصبحون فى هذه الحالة أعداء . . كل منهم يلوم الآخر على انه قاده الى الهلاك والعذاب وفى ذلك يقول الحق جل جلاله :

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

(الآية ٦٧ سورة الزخرف)



ولكن هل حالة الناس كلها واحدة ؟ . . نقول لا . . بل هم درجات حسب أعمالهم . . فالمقربون الى الله تمر عليهم هذه الساعة من أخف ما يكون . . تكون وجوههم ضاحكة مستبشرة . . وأصحاب اليمين أيضا كل حسب درجته . . ولكنهم جميعا مستبشرون . . ترى النقاء والنور والصفاء على وجوههم . . يخفف الله سبحانه وتعالى برحمته عنهم كل شيء . . فلا يحسون بالهول الأعظم . . بل الطمأنينة تملأ قلوبهم.والنور يحيط بهم.فرحمة الله تنزع عنهم هول الموقف .

وأصحاب النار أيضا درجات . . كل واحد منهم يملأ وجهه الهم والغم . . يقفون وهم فى بؤس وفزع شديد . . يحملون أعمالهم وخطاياهم فوق ظهورهم . . تنظر الى وجوههم . . فكأنها من الكآبة والحزن سوداء . . لا ترى فيها بِشْراً ولا نورا . . بل الهم الشديد يحيط بهم . . ينظرون حولهم يلتمسون مخرجا . . ولكن أين المخرج ؟ أين المفر ؟ !

إن المَلَكَ المكلف بكل واحد منهم . . واقف لا يغيب عنه لحظة . . وأعمالهم ثقيلة تجعل حركتهم صعبة ومؤلمة . . وتكاد تكون شبه مستحيلة . . حتى أن بعضهم من ثقل ما يحمل لا يستطيع السير . . بل يزحف على بطنه زحفا . . من ثقل ما يحمل فوق ظهره من ذنوب .

هل ستكون الذنوب فى صورة مادية ؟

ليس معنى هذا أن الذنوب ستكون فى صورة مادية محمولة . . ولكن معناه ان كل ذنب يجعل حركة صاحبه ثقيلة أليمة . . ولتعرف ما سوف يعترى وجوه الطائعين ووجوه العصاة والمذنبين . . فى هذا اليوم . . إقرأ قول الحل سبحانه وتعالى :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾

(الآيات من ٣٨ ـ ٤٢ سورة عبس)

إذن فبمجرد النظرة الى الوجوه ... تعرف مصير صاحبها . . فالوجوه الضاحكة المستبشرة هم أهل الجنة . . وهؤلاء لأنهم ذاهبون النعيم ملأ وجوههم البشر . . أما الوجوه الأخرى . . فيكفى أن أصحابها يعرفون أن مصيرهم النار . . فتعرف ماذا يكون الانطباع على وجوههم .

مَلَك مكلف بكل إنسان

ان كل واحد له مَلَك مكلف به . . مصداقا لقول الحق جل جلاله :

﴿ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴾

(الآية ٢١ سورة ق)

والسائق هو الذى يسوق الغنم . . وهو يمشى وراءها وليس أمامها . . حتى إذا ضلت الطريق يعيدها مرة أخرى الى الطريق الذى يجب أن تسلكه .

وهكذا يكون المَلَك المكلف بكل نفس وراءها . . وهى أمامه لا تغيب عنه أبدا . . لأنه هو الذى سيقودها الى مكانها المحدد فى أرض الميعاد . . أما الشهيد فهو العمل الذى سيشهد له أو عليه . . وهو شريط حياته كاملا . . لا تفوته حادثة واحدة .

هذا الحشر يقف منتظرا أمر الله سبحانه وتعالى بالتحرك من أرض الحشر الى أرض الميعاد . . حيث يتم الحساب . . وتدنو الشمس من رؤوس الخلائق . . ويحس الناس جميعا بالهول الذى يرونه . . ويبحثون عن شفيع يتشفع لهم عند الله سبحانه وتعالى فلا يجدون إلا محمدا صلى الله عليه وسلم .

من هذا يتبين لنا أنه قبل القيامة ينفخ فى الصور . . فيصعق

من فى السموات ومن فى الارض . . ثم ينفخ فى الصور مرة أخرى فإذا بالأرض تتشقق عمن فيها من خلق الله بسرعة رهيبة . . ويخرج كل انسان ومعه عمله . . والصالحون يملؤهم البشر والسرور . . وأهل النار وجوههم مكفهرة . . عليها غضب الله تبحث عن شفيع . . فلا تجد .

فى هذا اليوم كل انسان لا يهمه إلا نفسه . . الذين اجتمعوا فى الدنيا على الطاعة . . أصدقاء بعضهم البعض . . والذين اجتمعوا على المعصية أعداء بعضهم البعض . . وكل نفس معها مَلَكٌ مكلف بها ليقودها الى أرض الميعاد . . حيث يتم الحساب .

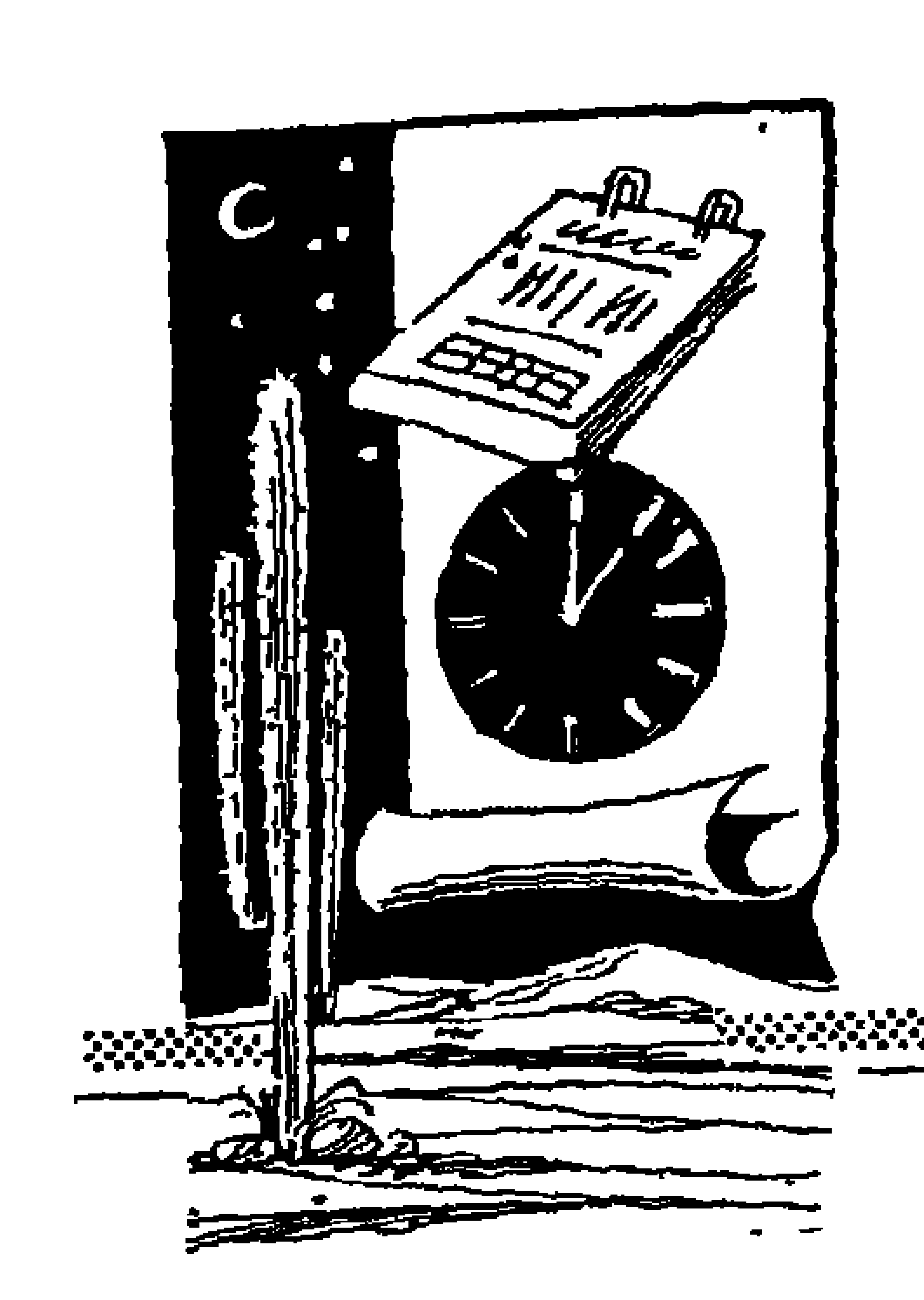
ان الله سبحانه وتعالى يصف هذا الموقف . . والهول العظيم الذى فيه بقوله :

﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴾

(الآية ١٧ سورة المزمل)

ونأتى بعد ذلك . . الى شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة . .. والى الموقف العظيم بين يدى الله سبحانه وتعالى . . وكيف سيتم الحساب ؟

الفصل الخامس



ارض الميعاد

الله سبحانه وتعالى حين يبعث الناس يوم القيامة . . تحدث هناك مشاهد كثيرة رواها لنا الله تبارك وتعالى فى القرآن الكريم . . ولكن ما جاء فى القرآن . . هو فقط أمثلة توضح لنا ما سيحدث . . أما الأحداث كلها فهى فى علم الله جل جلاله . . وأول أحداث القيامة أننا نفاجأ بها جميعا فى هذا اليوم . . ذلك أنه حتى الموتى . . الذين عرفوا مصيرهم . . ورأوا ما لانرى ، لا يعرفون متى تقوم القيامة . . بل إنهم يفاجأون بها . . كما يفاجأ بها الذين يكونون أحياء على ظهر الأرض وقت قيام الساعة . .

إذن فالساعة تأتى بغتة للأحياء وللأموات . . فلا الميت يعلم موعد يوم القيامة . . ولا الحى يعلم موعد يوم القيامة . . ولا الجن يعلم موعد يوم القيامة . . ولا أقرب الملائكة المقربين إلى الله . ـ وهو جبريل عليه السلام ـ يعلم موعد قيام الساعة . . فالله تبارك وتعالى احتفظ لنفسه بموعد قيام الساعة .

يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه (بينما نحن جلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم . . إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب . . شديد سواد الشعر . . لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد . . حتى جلس إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه . .

وقال يا محمد أخبرنى عن الاسلام .. قال : « الاسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتى الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا » .. قال صدقت .. فعجبنا له يسأله ويصدقه . قال فأخبرنى عن الايمان .. قال : « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره » قال صدقت .. قال فأخبرنى عن الاحسان .. قال : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » قال فأخبرنى عن الساعة .. قال : « ما المسئول عنها بأعلم من السائل » قال فأخبرنى عن أماراتها قال : « أن تلد الأمة ربتها .. وأن الحفاة العراة رعاة الشاء يتطاولون فى البنيان » قال ثم انطلق مليا .. ثم قال ياعمر .. أتدرى من السائل .. قلت الله ورسوله أعلم .. قال : فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم) .

إن جبريل عليه السلام .. وهو أقرب الملائكة إلى الله سبحانه وتعالى .. والذى كان ينزل بالقرآن .. لا يعرف متى تقوم الساعة .ولذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يقول فى كتابه :

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ﴾

(من الآية ١٨٧ سورة الأعراف)

إذن الساعة ستفاجىء كل خلق الله أمواتا وأحياء . . فلا الميت يعرف متى تقوم الساعة . . ولا الحى يعرف متى تقوم الساعة . . ولا الملائكة يعرفون . . ولكنها ـ كما قلنا ـ تفاجىء الجميع . . وأول شىء بعد المفاجأة هو المشاهدة . . بأن نرى الموقف العظيم . . وقد بعث خلق الله جميعا . .

والناس تختلف فى هذه اللحظة . . فكل واحد له حالة تتناسب مع عمله . . أى كل نفس بشرية لها حال حسب ما قدمت فى الدنيا . . فإن كانت من المتقين . . فإن لها حالة تتناسب مع درجة التقوى والقرب من الله . . وإن كانت من العاصين . . فإن لها حالة تتناسب مع درجة العصيان .

تتجمع الخلائق فى أرض الحشر . . وهى الأرض التى نعيش عليها لتنطلق إلى الأرض الميعاد . . وهى الأرض التى سيتم الحساب عليها . . ويطول الموقف . . وتدنو الشمس من رؤوس الخلائق . . ويروى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . . ما يحدث يومئذ :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يجمع الله الناس يوم القيامة ، فيقولون لو استشفعنا على ربنا ، حتى يُريحنا من مكاننا ، فيأتون آدم ، فيقولون : أنت الذى خلقك الله بيده ، ونفخ فيك من رُوحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، فاشفع لنا عند ربنا ، فيقول : لست هُنَاكم ، ويذكر خطيئته ، ويقول : ائْتُوا نوحا ، أول رسول بعثه الله ، فيأتونه ، فيقول : لست

هُنَاكُمْ : لست لها أهلا

هُنَاكُمْ ، ويذكر خطيئته ، ائْتوا إبراهيم الذى اتخذه الله خليلا ، فيأتونه ، فيقول : لست هُنَاكُمْ ، ويذكر خطيئته ، ائْتوا موسى ، الذى كلمه الله ، فيأتونه ، فيقول : لست هُنَاكُمْ ، فيذكر خطيئته ، ائْتوا عيسى فيأتونه ، فيقول : لست هُنَاكُمْ ، ائتوا محمدا ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتونى ، فاستأذن على رَبِّى ، فإذا رأيته وقعت ساجدا ، فَيَدَعُنى ما شاء الله ، ثم يُقَال : ارفع رأسك ، سل تُعْطَهْ ، وقل يُسْمَعْ ، واشفَع تُشَفَّعْ ، فأرفع رأسى ، فأحمد ربى بتحميد يُعَلِّمُنى ، ثم اشفع ، فَيَحُدُّ لى حدا ، ثم أخرجهم من النار ، وأدخلهم الجنة ، ثم أعود ، فَأَقَعُ ساجدا مثله فى الثالثة ، أو الرابعة ، حتى ما بقى فى النار الا من حبسه القرآن » .

هذا الحديث الشريف يثير العديد من الاسئلة . . السؤال الأول هو : إذا كان محمد صلى الله عليه وسلم يشفع يوم القيامة ، فلماذا لم تقتصر شفاعته على أمته فقط . . ولماذا شملت هذه الشفاعة سائر الأمم ؟

ونقول : ان الله سبحانه وتعالى ارسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين . . ومن مظاهر هذه الرحمة أن تعم جميع الخلائق . لهذا كانت له صلى الله عليه وسلم شفاعة عامة لكل خلق الله يوم القيامة ، وله شفاعة لأمته خاصة .

السؤال الثانى . . هو عن رؤية الله سبحانه وتعالى . .

يقول الله فى كتابه الكريم :

﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

(الآية ١٠٣ سورة الأنعام)

نقول إن الله سبحانه وتعالى : « لا تدركه الأبصار » .. أى لا تحيط به الأبصار فى الدنيا والآخرة .. لا تدركه الأبصار فى الدنيا . لأنه جل جلاله قد خلقنا من طين لا يتحمل نور ملكوت الله سبحانه وتعالى .. ولذلك عندما قال موسى رسول الله وكليمه :

﴿ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾

(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

كان موسى عليه السلام .. وهو فى بشريته .. يريد أن يرى الله سبحانه وتعالى .. بعد أن كلمه الله .. ماذا قال الله جل جلاله ؟ :

﴿ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾

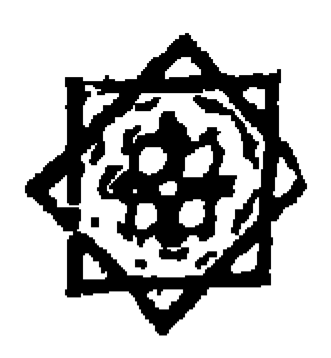
(من الآية ١٤٣ سورة الأعراف)

هذه الآية الكريمة ترينا أن موسى ببشريته .. لا يتحمل نور ملكوت الله .. ولذلك صعق من قوة نور الملكوت .. وكذلك كل البشر بهيئتهم البشرية .. لا يمكن أن يروا الله سبحانه

وتعالى . . لأنهم لا يتحملون نور ملكوت الله . .

ومن هنا فإننا فى الحياة الدنيا . . لا يمكن أن نرى الله . . ولكن فى الآخرة . . سنكون خلقا آخر فى طبيعة التكوين . . فنحن فى الدنيا نعيش ونموت . . ولكننا فى الآخرة سنكون خلقا آخر فى التكوين . . لا يدركه الموت . . بل يحيا حياة أبدية . .

ونحن فى الدنيا حياتنا تقاس بالزمن . . فنبلغ مرحلة الشباب ثم الشيخوخة . . ولكن فى الآخرة لا زمن . . بل يبقى كل واحد منا فى شباب دائم . . ومعنى هذا أن طبيعة التكوين ستكون متغيرة . . بحيث يكون فينا أشياء ليست موجودة فى طبيعة تكويننا الدنيوى .



الله سبحانه وتعالى . . سيغير طبيعة تكويننا فى الآخرة . . ليحتمل رؤية الله سبحانه وتعالى . . دون الاحاطة به جل جلاله . . أى أن الرؤية لا تكون رؤية إحاطة . .

يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾

(الآيتان ٢٢ ، ٢٣ سورة القيامة)

وهكذا نعرف من القرآن الكريم . . أن تكويننا فى الآخرة . . سيكون مختلفا عن تكويننا فى الدنيا . . بحيث نستطيع أن نرى من ملكوت الله ما لانراه فى الدنيا . .

وقد قال أناس لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . يارسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ . . فقال عليه الصلاة والسلام . هل تُضَارُّونَ فى الشمس ليس دونها سحاب ؟ . . قالوا لا يارسول الله . . قال هل تضارون فى القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ . . قالوا لا يارسول الله . . قال فإنكم ترون ربكم يوم القيامة كذلك .

تُضَارُّونَ : تَشُكُّون .

كيف نرى جميعا يوم القيامة

بقى بعد ذلك السؤال الأخير . . فى هذا الحديث الشريف وهو : كيف يحيط كل إنسان منا بمشهد يوم القيامة بالأولين والآخرين فى صعيد واحد . . نبصرهم ونسمعهم . . هذا العدد الهائل من الخلق . . كيف يمكن أن نراه وأن نسمعه ؟ !

نقول إن تقدم العلم البشرى قد قرب إلينا هذه الصورة . . إننا الآن وبعد استخدام الأقمار الصناعية . . يجلس الواحد منا فى بيته فيرى ما يحدث فى الدنيا كلها . . وهو لا يتحرك من مكانه . . ألم يحدث عندما نزل أول إنسان على القمر أن شهدته الدنيا كلها فى لحظة واحدة . . وكل منا جالس فى مكانه لا يتحرك منه على بعد مئات الألوف من الأميال . . ومع ذلك يرى ما يحدث رؤية واضحة وكأنه جالس على سطح القمر .

ألا يتحدث إنسان الآن فى الاذاعة أوعبر القمر الصناعى للتليفزيون . . .يتحدث إنسان الآن . . فتسمعه الدنيا كلها فى وقت واحد . . وفى نفس اللحظة التى يتحدث فيها ؟! إذا كان هذا ممكنا بقدرات خلق الله . . فكيف يكون بقدرة الله سبحانه وتعالى ؟ . .

نعم سنرى ونسمع فى يوم القيامة كل شىء . . سيكون كل شىء مشهودا من خلق الله جميعا .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴾

(من الآية ١٠٣ سورة هود)

ولذلك قيل فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة . . لأن أى فضيحة فى الدنيا . . مشهودة من عدد قليل من الناس مهما كثر . . ولكن الفضيحة فى الآخرة تكون أمام خلق الله جميعا .



وفى الآخرة تخرج الأسرار .. فلا يكون هناك سر .. بل كل ما فعله الانسان سرا وأخفاه عن الناس ، يظهر أمام خلق الله جميعا .. ولذلك قال الحق سبحانه وتعالى عن ذلك اليوم :

﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾

(الآية ٩ سورة الطارق)

إن كل سر حرص الناس على إخفائه وحسبوا أن أحدا لم يعلم به .. وكل جريمة ارتكبت فى الخفاء دون أن يدرى أحد .. وكل معصية حدثت وحرص صاحبها على أن يخفيها عن الناس .. كل هذا سيظهر يوم القيامة أمام خلق الله جميعا .

ثم هناك أشياء حدثت .. ثم نسيها الانسان فى غمرة أحداث الحياة .. سيجدها أمامه واضحة جلية .. كما حدثت بأشخاصها وأبطالها وأحداثها .. لذلك يقول الله جل جلاله :

﴿ أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾

(من الآية ٦ سورة المجادلة)

ويقول المجرمون يوم القيامة .. وكل منهم يقرأ كتابه .. وكل منهم يشاهد شريط حياته .. بكل أحداثها .. يقولون كما

يروى لنا القرآن الكريم :

﴿ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ﴾

(من الآية ٤٩ سورة الكهف)

وهكذا نعرف أن كل ما نفعله فى حياتنا .. سيكون موجودا أمامنا يوم القيامة .. والشفاعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة .. تنجى كثيرا من المؤمنين من العذاب .. ورسول الله عليه الصلاة والسلام مشفع فى أمته .. والذين يحاولون أن ينكروا الشفاعة لرسول الله .. هم خارجون على هذا المنهج .. لأن الشفاعة له صلى الله عليه وسلم ثابتة فى القرآن الكريم .. فالله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾

(من الآية ٢٥٥ سورة البقرة)

ويقول جل جلاله :

﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴾

(الآية ١٠٩ سورة طه)

وهناك آيات أخرى فى القرآن الكريم تُقَرِّرانه سيكون هناك شفاعة يوم القيامة لمن يأذن له الله .. ولا يوجد أشرف ولا أقرب من رسوله صلى الله عليه وسلم .. ولذلك .. فلن يكون أجود

بالشفاعة يوم القيامة من محمد صلى الله عليه وسلم . . فهو عليه الصلاة والسلام قد أُعْطِىَ الشفاعة من ربه . . وهو عليه الصلاة والسلام مأذون له بالشفاعة . . وهو عليه الصلاة والسلام رحمة للعالمين . . ومن مقتضيات الرحمة الشفاعة .

نقول إن خلق الله جميعا . . سيحشرون يوم القيامة ويطول عليهم الموقف . . وتدنو الشمس من رؤوس الخلق . . وكل واحد مرهون بعمله . . لأن الله سبحانه وتعالى خلق الدنيا . . وأنزل فيها منهجه بالتكاليف . . وقدر فيها بالاختيار الذى منحه جل جلاله للانسان . . أن يختار الانسان إيمانه . . وأن يختار كفره والعياذ بالله . . فمن اختار الايمان فهو بخير فى منازل الايمان . . وهو فى منزلة المقربين أصحاب اليمين . . ومن اختار الكفر والعياذ بالله . . فهو قد اختار النار ، ومنزلته مع المعذبين .

ثم يمضى الموكب . . من أرض الحشر إلى أرض الميعاد . . وهى أرض أعدها الله سبحانه وتعالى للآخرة . . ليوم الحساب . . يجتمع فيها كل خلق الله منذ عهد آدم إلى قيام الساعة . . ولكل إنسان منا فيها مكان معلوم . . مكان حدده الله سبحانه وتعالى لخلقه جميعا . . وكل إنسان معه مَلَك . . يقوده إلى المكان المحدد له فى أرض الميعاد .

وعند وصولنا إلى أرض الميعاد . . تنتهى الأسباب تمام تدمر . . ولن توجد أسباب ، وإنما كل شىء من المُسَبِّب

سبحانه وتعالى . . فيكون النور الذى يضىء هذه الأرض هو نور الله جل جلاله . . وتكون القدرة فى هذا الموقف هى لله وحده دون أسباب . . فلا يملك إنسان لنفسه شيئا . . ولا يملك لغيره ضرا ولا نفعا . . ويعود كل ما جعله الله سبحانه وتعالى خاضعا للبشر بقدرة الله . . يعود إلى القدرة الالهية المباشرة .



إن لسانك الذى كان يطيعك فى الكذب والنفاق والكفر . . تجده مسبحا لله شاهدا عليك . . واليد التى كنت تبطش بها . . وتسرق بها وتقتل بها . . وتفعل بها كل مايغضب الله . . وكانت تطيعك فى حياة الاختيار . . تجدها شاهدة عليك . . وكذلك الأقدام والجلود . . وكل خلية من خلايا جسدك تشهد عليك فى ذلك اليوم . . وفى ذلك يقول الله جل جلاله :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(الآية ٢٤ سورة النور)

ويجب أن نتنبه أن لكل شىء خلقه الله سبحانه وتعالى لغة . . والشىء هو الشامل لكل الأجناس . . فإذا قلت شيئا . . فإن هذا يشمل كل ما خلقه الله سبحانه وتعالى . . حتى الجماد له لغة يتحدث بها . . وقد سبق أن بيننا ذلك . . وكيف أن القرآن ذكر لنا أن للجماد عواطف . . وأن الأرض تبكى .

إن الأرض تشهد على خطواتك يوم القيامة . . والحجر يشهد عليك يوم القيامة . . إن الذين كانوا يعبدون الأحجار والأصنام . . تأتى هذه الأحجار لتشهد عليهم يوم القيامة . . وتقول عبدونا ونحن أعبد لله منهم نسبح الليل والنهار .

الأحجار تَسْعَدُ بحرق العاصين

بل إن هذه الأحجار ـ التى هى وقود جهنم ـ تكون سعيدة وهى تحرق الكافرين والمنافقين والعاصين لله . . تكون سعيدة لأنها تؤدى مهمتها التى كلفها الله سبحانه وتعالى بها . . فمن تمام عبادة الله سبحانه وتعالى أن يؤدى العبد ما كلفه الله به . . ويكون فى هذه الحالة فى قمة السعادة . . وفى قمة الانسجام . . لأنه يؤدى مهمته فى الكون .

فى أرض الميعاد . . ستكون هناك مشاهد كثيرة ، بينها الناس واقفون فى انتظار الحساب . . وقد انتهت الأسباب وانتهى كون الأسباب . . ولم يبق إلا نور الله سبحانه وتعالى . . مصداقا لقوله جل جلاله :

﴿ وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ ﴾

(من الآية ٦٩ سورة الزمر)

هذه المشاهد كما بينا . . يشهدها كل خلق الله ويرونها رؤية واضحة .

كل خلق مع من عبدوه

وتكون بداية الحساب .. بأن يأمر الله سبحانه وتعالى .. أن يكون كل خلق مع ما عبدوه .. فينقسم البشر إلى أقسام مختلفة ..

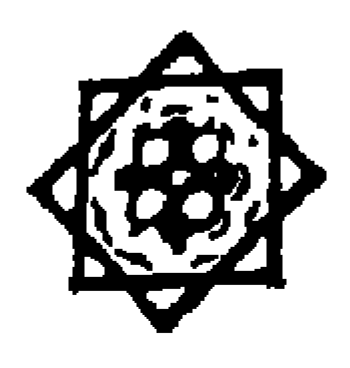
فالذين عبدوا الأحجار.. يقفون مع الأحجار .. والذين عبدوا الشمس .. يحشرون مع الشمس .. والذين عبدوا الانسان كآل فرعون .. يقفون معه ويكون هو فى مقدمتهم .. والذين عبدوا التماثيل الذهبية .. كالبوذيين مثلا سيقفون مع تماثيلهم .. والذين عبدوا آباءهم كما هو فى بعض الديانات فى اليابان .. يحشرون مع آبائهم ، والذين عبدوا الحيوانات كما يحدث فى الهند .. يحشرون مع الحيوانات .. والذين عبدوا الشيطان يحشرون مع الشيطان .. والذين أشركوا بالله يحشرون مع ماأشركوا به .. والذين عبدوا الله سبحانه وتعالى يحشرون معا .. إن كل من عبد شيئا يحشر معه .

ثم يأتى السؤال من الله سبحانه وتعالى أين آلهتكم ؟ فينظر كل الذين عبدوا غير الله حولهم .. بعد أن ظهرت الحقيقة وأصبحت يقينا .. وزال كل زيف الدنيا .. ينظرون حولهم .. فماذا يجدون ؟ ! .. يحكى لنا القرآن الكريم هذه الصورة فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ ﴾

(من الآية ٦٤ سورة القصص)

هذا هو موقف الذين عبدوا أشياء من دون الله . . فماذا يكون موقف أولئك الذين عُبِدُوا فى هذا اليوم العظيم ؟ . . إنهم ينقسمون إلى قسمين . . قسم ليس لهم ذنب فى هذه العبادة . . كالأحجار والشمس والحيوانات وغير ذلك . . هذه الأجناس كلها مقهورة على الطاعة لله سبحانه وتعالى . . ولذلك فهى لم تغر أحدا على عبادتها . . وليس لهذا ذنب فى أنها أُتُّخِذَتْ آلهة من دون الله . . فى هذا اليوم ـ كما بينا ـ كل شىء ينطق ويتكلم . . فماذا يقولون ؟ !



الذين عبدوا .. ولا ذنب لهم

هؤلاء يتجهون إلى الله سبحانه وتعالى . . ليعلنوا أنه لا ذنب لهم فى أن الناس اتخذوهم آلهة . . وأنهم لم يدعوا الناس إلى عبادتهم . . وأنهم مؤمنون بالله سبحانه وتعالى مسبحون له . .

واقرأ قول الله جل جلاله :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴾

(الآيتان ١٧ ، ١٨ سورة الفرقان)

وهكذا يتبرأ كل من عُبِدَ بدون اختياره من الذين عبدوه . .

ولكن ماذا عن الذين دعوا الناس لعبادتهم . . وأغووهم على هذه العبادة . . وكانوا يعذبون كل من لا يعبدهم ؟!

هؤلاء أيضا يتبرأون يوم القيامة ممن عبدوهم . . أى يتبرأ المعبود من العابد ويعلن أنه برىء من عبادته . . مع أنه هو الذى

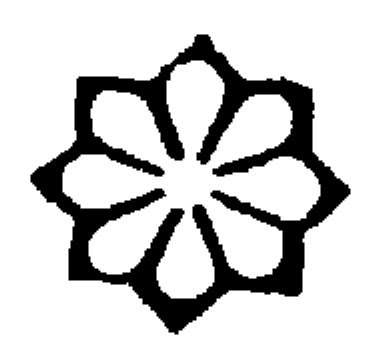
أغواه .. ويكون ذلك زيادة فى عذاب الذين عبدوا شركاء من دون الله ..

وفى ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

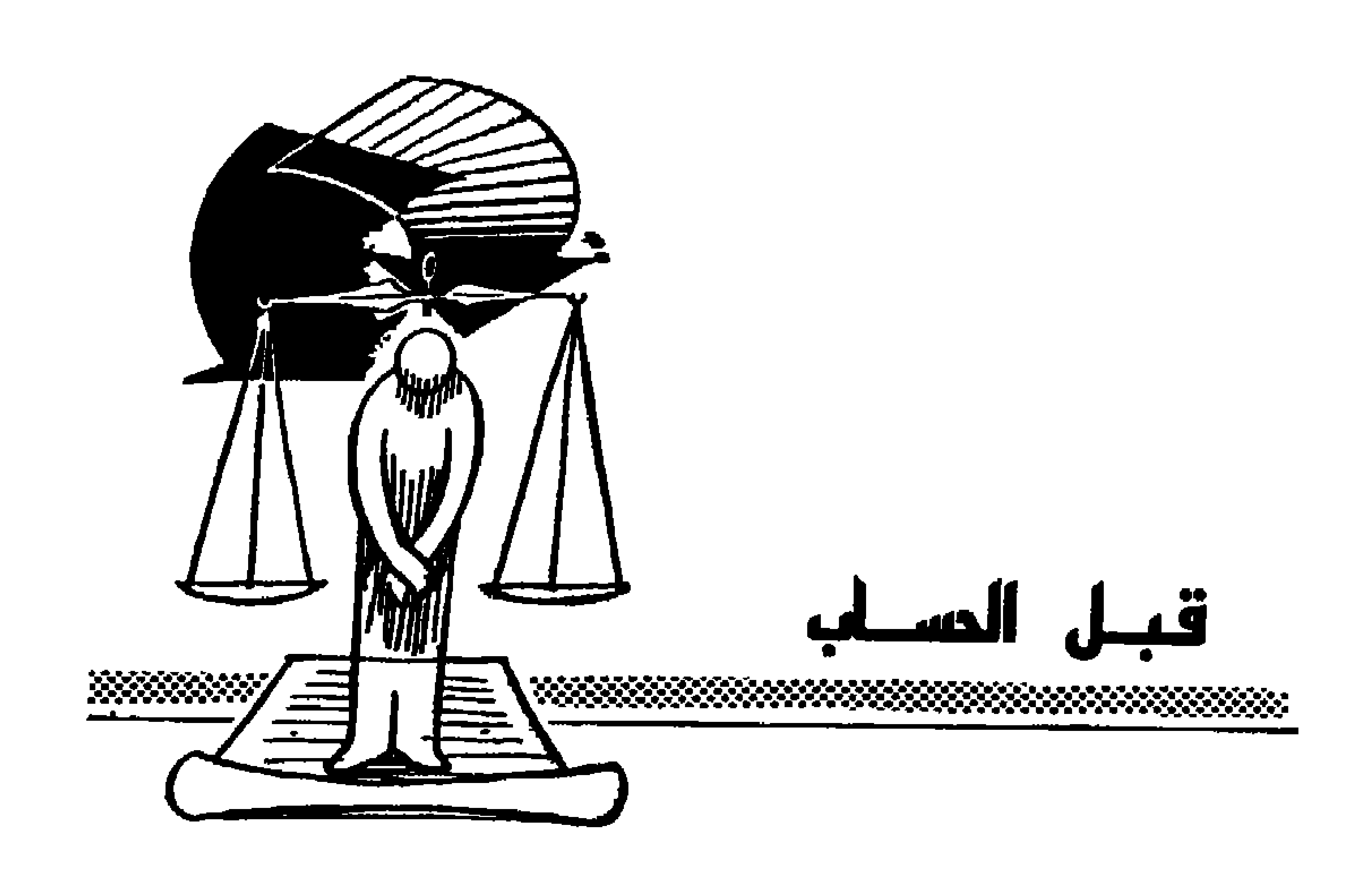
﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾

(الآية ١٦٦ سورة البقرة)

ولكن هناك أحداث كثيرة .. ستقع فى هذا اليوم .. ولكل منها معنى ودلالة .



الفصل السادس



قبل الحساب

إن هنالك أشياء يريد الله سبحانه وتعالى أن يشهدها كل خلقه يوم القيامة .. ولذلك فإن هذه المشاهد تقع على مرأى ومسمع من الخلق جميعا .. والله جل جلاله روى لنا بعض هذه المشاهد فى القرآن الكريم .. حتى إذا شهدناها فى الدنيا .. عرفنا أى عاقبة وخيمة تنتظر أصحابها يوم القيامة .. إنها لقطات .. ترينا القدرة والقوة والجزاء .. وما ينتظر كل كافر بمنهج الله .. مخالف له .

إذا أردنا أن نبدأ فى ذكر هذه المشاهد .. فإننا نبدأ بأئمة الكفر .. أولئك الذين يحاربون دين الله فى الدنيا .. وينشدون الكفر .. ويحاربون الايمان .. وقد اتخذوا من قوتهم الدنيوية درعا يحاربون به شريعة الله .. هؤلاء الذين كتبوا الكتب .. وأعدوا الفلسفات الزائفة ليحاربوا دين الله فى الأرض .. وأنفقوا أموالهم ليطفئوا نور الله .. وقد كانوا فى حياتهم الدنيوية يحاربون دين الله بقوة وعنف .

الله سبحانه وتعالى لا يتركهم فى الدنيا .. وإنما يمهلهم ليفتن بهم ضعاف النفوس .. ولقد سبق أن قلنا أن الله تعالى يبتلى الناس بالخير والشر فتنة .. أى يمتحنهم بالخير ليرى هل سيطغون أم سيزدادون إيمانا .. ويبتليهم بالشر ليرى أيشكرون أم يكفرون .. ومن الابتلاء بالشر .. أن يعلوا الذين كفروا

لفترة فى الحياة الدنيا كفتنة .. ثم بعد ذلك يهوى بهم الله سبحانه وتعالى .. فيأخذهم أخذ عزيز مقتدر .

ولعل ما نراه الآن مما يحدث فى الدول الشيوعية .. هو خير دليل على كيف ان الله .. يهدم دولة الكفر فى أيام .. ويحولها من دولة عظمى إلى دولة لا حول لها ولا قوة .. بقدرته سبحانه وتعالى .. ودون أن يسلط عليهم أحدا من عباده .. بل يسلط عليهم أنفسهم

أئمة الكفر .. هؤلاء .. يكنون العداوة الشديدة لله ودينه وكتابه .. يعطينا الله سبحانه وتعالى صورتهم يوم القيامة .. وماذا سيحدث لهم .. يقول الحق جل جلاله :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ۝ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴾

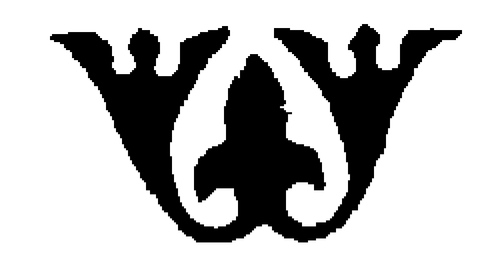
(الآيتان ٦٨ ، ٦٩ سورة مريم)

يأتى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة .. ويحشر هؤلاء ومعهم الشياطين .. فهؤلاء هم أكبر أعوان الشيطان .. وهم الذين عبدوه وأطاعوه .. وهم الذين حاولوا أن يحاربوا دين الله .. وساعدتهم فى ذلك شياطين الإنس والجن .

هؤلاء يأتى بهم الله سبحانه وتعالى يوم القيامة .. ويجمعهم جميعا حول جهنم ليروا العذاب الذى ينتظرهم .. بل يجعلهم

قاعدين حول جهنم .. ليزيد عذابهم برؤيتها .. ثم بعد ذلك ينزع منهم أكابرهم .. أولئك الذين كانوا من أشدهم حربا لله .. والذين كانوا يقودون معركة الكفر .. ينزعهم الله سبحانه وتعالى ..

ولابد أن نلتفت إلى قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ثم لننزعن ﴾ .. أى نأخذهم قهرا رغما عنهم .. ونزع الشىء من الشىء لا يتم إلا بالعنف والغصب وعدم الرضا .. فهؤلاء ينزعون نزعا رغما عنهم .



هذا النزع يحدث بأمر من الله سبحانه وتعالى .. ليراهم خلق الله جميعا .. ـ وهم الذين كانوا يتباهون بقوتهم وقدرتهم الدنيوية ـ أذلاء ينتزعون انتزاعا من بين أقوامهم .. ومن بين من تبعوهم .. وهم بلا حول ولا قوة ليلقى بهم بعد ذلك فى أشد العذاب .

هذه صورة من الصور .. التى بينها لنا القرآن الكريم .. بما سيحدث فى الآخرة بالنسبة لأئمة الكفر .. كما أعطانا القرآن الكريم صورة أخرى بالنسبة لأصدقاء السوء .. أولئك الذين يجتمعون فى الدنيا على الشر والمعصية .. لقاؤهم ملىء بالخمور والنساء .. يفعلون ما حرم الله .. وتجد أولئك قد اجتمعوا لا يفارقون بعضهم بعضا فى سهرات تحدث كل ليلة .. ما يربط بينهم هو أكثر من صداقة .. لذلك أسماهم الله سبحانه وتعالى : « أخلاء » .. وهم يتعاونون على الشر .. ويحب بعضهم البعض .. ويتكاتفون أمام أمور الدنيا .. يساعد بعضهم بعضا على الإثم والمعصية .

هؤلاء يأتون يوم القيامة .. وقد أصبحوا أعداء لبعضهم البعض .. يلعن بعضهم بعضا .. ويحاول كل منهم أن يفتك بالآخر .. الصداقة الحميمة انقلبت إلى عداوة رهيبة .. وفى

ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾

(الآية ٦٧ سورة الزخرف)

ويقول جل جلاله :

﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴾

(الآية ٢٥ سورة العنكبوت)

وهكذا نرى أن الذين ربطت بيهم المعصية بالمودة والصداقة . . يتحولون إلى أعداء ألداء يوم القيامة . . وإذا تمكن بعضهم أن يفتك ببعض فإنه يفعل . . ذلك ان كل واحد منهم يتهم الآخر بأنه هو الذى قاده إلى النار . . وهو الذى سهل له سبيل المعصية . . وهو الذى أعانه على ما يغضب الله . . ويوقن أنه لولا هذا التيسير . . ما كان مصيره جهنم . . وهكذا ينقلب الأصدقاء إلى أعداء . . فى ذلك اليوم المشهود .

صورة الذين كذبوا على أنفسهم

ويعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى .. هى صورة أولئك الكذابين الذين تعودوا الكذب فى الدنيا .. وهم يحاولون أن يكذبوا على الله فى الآخرة .. وطبعا لا يستطيع إنسان أن يكذب على الله .. لأن الله سبحانه وتعالى محيط بكل شىء .. يعلم ما نخفى وما نعلن .. ويعرف مايدور فى صدورنا .. وما توسوس به أنفسنا ..

فى هذا اليوم يستحيل أن يكذب إنسان على الله .. فكل إنسان إنما يكذب على نفسه .. أو يكذب على من حوله من البشر إن كان اعتاد الكذب .. لأن البشر يعلمون أشياء وتخفى عنهم أشياء .. فينطلى الكذب عليهم .. أما الله سبحانه وتعالى العليم بكل شىء .. فلا يستطيع أحد أن يكذب عليه تبارك وتعالى .. اقرأ قول الحق جل جلاله فيهم :

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ • انظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾

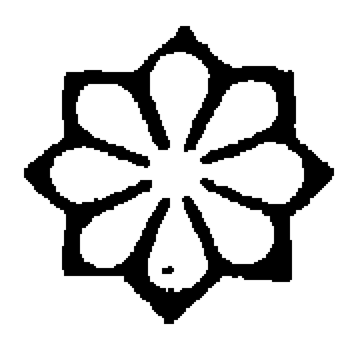
(الآيتان ٢٣ ، ٢٤ سورة الأنعام)

هؤلاء المشركون الذين اعتادوا الكذب فى الحياة الدنيا ..

يحسبون أنهم يوم القيامة يستطيعون أن يخدعوا الله سبحانه وتعالى . . ويستطيعون الكذب على الله . . فيقسمون بذاته العلية أنهم ما كانوا مشركين . . ويحسبون أن هذا الكذب ينجيهم من العذاب .

ولكن الله سبحانه وتعالى يأتى لهم بكتابهم الذى يشهد عليهم . . ويجعل أرجلهم وأيديهم وألسنتهم تشهد عليهم . .

إن هذا كله يحدث بلغة يفهمونها . . فيوم القيامة تزول كل الحجب . . ويفهم الله الناس كل اللغات . . ما كان منها حديثهم فى الدنيا . . وما كان مخفيا عنهم من لغات أجناس الكون التى كانوا لا يفقهون منها شيئا . . فيفهمون كل شىء بقدرة الله تعالى . . ويفقهون كل حديث . . لأننا كما قلنا فى هذا اليوم تزول كل الحجب .



ماذا يقول الشيطان يوم القيامة ؟

الحق سبحانه وتعالى يعطينا صورة أخرى .. هى صورة الشيطان الذى نراه يوم القيامة ونعرفه بصورته وهيئته .. يأتى الشيطان يوم القيامة ويعترف أمام الناس جميعا .. بأنه قد خدعهم .. وبأنه قد ضللهم . وبأن الله سبحانه وتعالى وعد الناس وعد الحق .. وأن الشيطان كذب عليهم كما كذب على آدم من قبل .. ويتبرأ الشيطان من أنه أجبر إنسانا على المعصية .. ويقول إن أولئك الذين اتبعوه فعلوا ذلك لأن فى قلوبهم مرض وهوى .. وأشياء يريدون أن يفعلوها .. فلم يكد الشيطان يزينها لهم حتى فعلوها .. ويقول لهم إنكم فى موقفكم هذا لا تستطيعون أن تنجونى من العذاب .. ولا أستطيع أنا أن أنجيكم منه .

ويقول الشيطان انه لم تكن لى قدرة وقوة لأقهركم على فعل المعاصى .. والله سبحانه وتعالى لم يعطنى قوة القهر عليكم .. حتى أستطيع أن أجعلكم تفعلون شيئا لا تريدونه .. وأن أقهركم عليه .. ولا أعطانى سلطان الحجة .. لأستطيع أن أقنعكم بأن تفعلوا الباطل بقوة الحجة والمنطق فتفعلونه بأنفسكم .. مقتنعين بما قلته لكم .. بل أنتم كنتم تريدون أن تفعلوا المعصية .. فما كدت أزينها لكم حتى أسرعتم إليها بدافع من أنفسكم .

ويعطى لنا الله سبحانه وتعالى هذه الصورة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(الآية ٢٢ سورة إبراهيم)

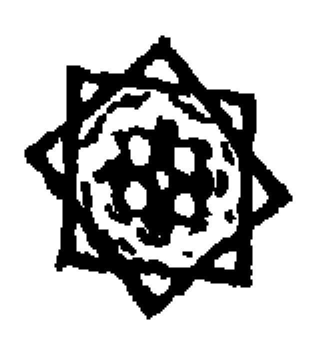
وهكذا يتبرأ الشيطان يوم القيامة . . من الذين اتبعوه ويعلن براءته منهم . . مع أنه أغواهم . . ويلقى اللوم على الانسان . . لأنه هو الذى عصى . . وهو الذى أراد المعصية . . ولم يكن إغواء الشيطان إلا دعوة فقط . . وبمجرد الدعوة انطلق العصاة إلى المعصية . . ويقول الشيطان: ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى . . ويقال أصْرَخه أى حضر على صراخه لينجده . .

والانسان لا يصرخ طالبا النجدة . . إلا إذا واجه حدثا يعجز عن صده . . فهب أن حريقا صغيرا قد شب وتستطيع أنت إطفاءه . . فأنت لا تصرخ طالبا النجدة . . لكن إذا كان الحريق

كبيرا لا تقدر عليه .. فإنك تصرخ طالبا النجدة .. وفى هذه الحالة يأتى إليك من ينجدك .. ويقال أصرخه فلان .. أى جاء لنجدته .. لكن الذى يأتى للنجدة .. لابد أن يكون قادرا عليها ..

لنفرض أنه قد هاجمك لص قوى .. وصرخت طالبا النجدة .. وكان فى هذا الوقت يمر رجل عجوز ضعيف لا يقوى على السير .. أيسرع لنجدتك ؟ .. طبعا لا .. لأنه لا يستطيع أن يفعل شيئا .. ولكن إذا كان المارُّ رجلا قويا أو عدة رجال .. فإنهم يسرعون إلى نجدتك .

وقول الشيطان : ﴿ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ﴾ .. أى أنه ليس لأحد منا اليوم قوة على أن ينجد الآخر .. فلا الشيطان له قوة ليمنع إلقاء العصاة فى النار .. ولا العصاة لهم قدرة ليمنعوا العذاب عن الشيطان .. بل كل واحد منهم عاجز تماما أمام قدرة الله .



عندما يقول الشيطان الصدق !!

ولكن لماذا يقول الشيطان الصدق فى هذا اليوم ؟ . . لماذا يصدق وقد كان كاذبا منذ خلق آدم حتى يوم القيامة . .

إن الشيطان الذى طالما كذب على الانسان وخدعه . . يأتى اليوم ويقول الصدق . . لماذا ؟ .

إن ذلك يحدث لسببين رئيسيين . .

السبب الأول:إن كل شىء قد انتهى . . المهلة التى أعطاها الله للشيطان انتهت . . فلم يعد له قوة ولا قدرة على الاغراء . . وحتى إذا حاول أن يكذب . . فإن كل شىء قد ظهر وبان . . وزالت الحجب . . فلم يعد يصدقه أحد . . وقد رأى الناس الجزاء حقيقة واقعة بعد أن كان غيبا . .

والسبب الثانى:إنه لا فائدة من الكذب . . ذلك أن الاختيار البشرى قد انتهى . . ولم يعد أحد قادراً على المعصية . . ولم يعد أحد له القدرة فى أن يفعل أو لا يفعل . . ولا القدرة على أن يختار . . فمهما كذب الشيطان فلا فائدة . . فقد طلب الشيطان من الله أن يمهله إلى يوم البعث . . وأمهله وانتهت المدة . . ولم يعد هناك مهلة ولا اختيار إلا لله سبحانه وتعالى .

والله يزيدهم غيظا وحسرة

هذا موقف من مواقف إبليس . . الذى سنراه يوم القيامة ونشهده جميعا ، سوف نشهد إبليس وهو يتبرأ من كل غواية للانسان . . ويتهم الانسان بأنه هو الذى أراد المعصية . . وهو الذى سعى إليها . . وهكذا تظل عداوة إبليس لبنى آدم . . حتى فى يوم القيامة . . وحتى ساعة الجزاء .

وموقف آخر يرويه الله سبحانه وتعالى لنا . . موقف أولئك الذين اتبعوا كبراءهم وسادتهم . . الذين أغووهم على المعصية وزينوها لهم . . وكافؤوهم عليها . . حينئذ يأتى هؤلاء السادة يوم القيامة فيتبرأوا من الذين اتبعوهم . . ويحاولوا النجاة من العذاب . . وينكروا أنهم أغروا هؤلاء الناس ليتركوا الطاعة . . ويعصوا الله . . وإنهم زينوا ذلك وكافؤوهم عليها . .

فى هذا اليوم يملأ الغيظ قلوب الاتباع . . يملؤه حقدا على أولئك الذين جاءوا اليوم أمام الله ليتبرأوا منهم . . ويطلبوا من الله سبحانه وتعالى أن يعطيهم فرصة ليتبرأوا منهم . . حتى تبرد نار قلوبهم . . ولكن الله سبحانه وتعالى لا يجيبهم إلى مطلبهم .

وفى ذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾

(الآية ١٦٧ سورة البقرة)

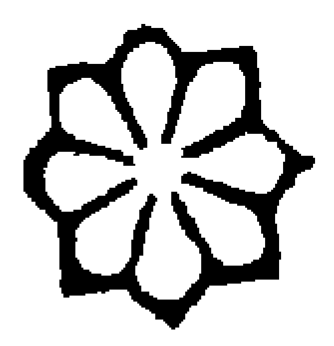
إن هؤلاء الأتباع يطلبون فرصة ليتبرأوا ممن كانوا اتباعا لهم .. وجاءوا يوم القيامة وتبرأوا منهم .. لكن الله سبحانه وتعالى لا يعطيهم هذه الفرصة .. لتزداد الحسرة فى قلوبهم .. ويزداد غيظ قلوبهم .. لأن الله سبحانه وتعالى فى ذلك اليوم .. إنما يزيدالكافرين غيظا وحسرة .. ولا يجيب لهم طلبا .. حتى وهم فى النار يعذبون .. حين يطلبون تخفيف العذاب .. ولو ليوم واحد .. إن الله تبارك وتعالى لا يخفف عنهم العذاب .. ويدعونه فلا يستجيب لهم .. ولا يسمع لهم ..

واقرأ قول الحق جل جلاله :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۝ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾

(الآيتان ٤٩ ، ٥٠ سورة غافر)

إن الله سبحانه وتعالى لايكلم الكافرين يوم القيامة .. بعد أن يقضى عليهم فى النار .. ولاينظر إليهم .. ولا يستجيب لدعائهم .



صورة الأعمى يوم القيامة

وهناك صورة أخرى يعطيها لنا القرآن الكريم .. عن ذلك الذى يحشر فى يوم القيامة أعمى .. ومعنى أعمى أنه تحيط به ظلمات أعماله السيئة .. فلا يرى شيئا .. يمشى فيسقط .. ويتخبط يمينا ويسارا .. ويلاقى من العنت والعذاب ما يلاقيه الأعمى الذى لا يقوده أحد .. بل وأكثر من ذلك .. يملأ الخوف نفسه .. لأنه فى ظلمات لا يرى شيئا .. ويتجه إلى الله سبحانه وتعالى .. ويسأله عن سر حشره أعمى فى الآخرة .. بينما كان بصيرا فى الدنيا ..

إن الله سبحانه وتعالى يوضح له أنه أعطاه البصر فى الدنيا .. فلم يستفد منه شيئا .. كانت الآيات التى تملأ الكون كلها أمامه .. سواء كانت هذه الآيات ظاهرة فى دقة الخلق فى كل شىء أوجده الله سبحانه وتعالى .. من شمس وأرض وكواكب ونجوم وبحار وأنهار وثمار وغير ذلك .. وكلها تدل على أن الله سبحانه وتعالى هو وحده الخالق .. فلا يستطيع أحد أن يدعى أنه خلق الكون .. أو خلق حبة قمح .. أو خلق وردة .. أو خلق بعوضة .. أو خلق حتى جناح ذبابة .

ورغم وضوح هذه الآيات .. ورغم أن الله سبحانه وتعالى قد لفتنا إليها فى منهجه .. وطلب منا أن نتدبرها .. ورغم أن

الانسان يعلم يقينا أنه لم يخلق نفسه . . وأن الله سبحانه وتعالى هو الذى خلقه . . فإن هذا الكافر . . رفض أن يلتفت إلى آيات الله . . مع أن الله تبارك وتعالى قد أعطاه البصر ليرى . . ولكنه لم ير شيئا . . فكأنه هو والأعمى سواء بسواء . . فيقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ۝ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴾

(الآيتان ١٢٥ ، ١٢٦ سورة طه)

وقوله جل جلاله :

﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾

(الآية ٧٢ سورة الاسراء)

والعمى هنا ليس مقصودا به العمى الحسى . . ولكنه العمى المعنوى لِلبصر والبصيرة . . بأن تكون أمامك آيات الله ظاهرة واضحة جلية فلا تراها . . بينما الحق سبحانه وتعالى طلب منك أن تتدبر فى آياته .

الزوجة التى تدفع زوجها للمال الحرام

وقبل أن نتوقف عن هذه المشاهد . . لنكملها فى كتاب قادم إن شاء الله عن يوم الحساب . . فإننا نعرض لمشهد الزوجة التى تدفع زوجها إلى الفساد . .

إن هناك كثيرا من الزوجات يرهقن الأزواج بالمطالب . . ويرفضن الحياة فى حدود مرتب الزوج أو دخله . . بل يطالبن باستمرار بأشياء لا قدرة للزوج عليها . . ويضطر الزوج لكى يرضى زوجته . . أن يمد يده إلى المال الحرام . . فيرتشى ويسرق ويختلس وينصب . . ويحاول بكل الطرق غير الشريفة . . أن يحصل على المال ليرضى زوجته . . ويحقق لها ما تريد .

هذه الزوجة تتحمل الوزر الأكبر . . ويأتى الله بها يوم القيامة ومعها زوجها للحساب . . الزوجة التى دفعت زوجها إلى السرقة . . والزوج الذى ضعف وكان من الممكن أن يرفض . . ومن الممكن أن ينفصل عن زوجته التى دفعته إلى معصية الله . .

الحق جل جلاله يقول :

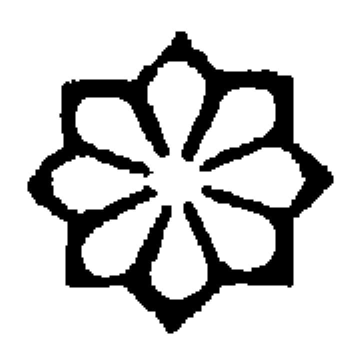
﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴾

(الآية ٢٢ سورة الصافات)

ونلاحظ هنا فى هذه الآية . . أن الله سبحانه وتعالى قدم

الزوجة على الزوج ﷺ . فلم يقل جل جلاله احشروا الذين ظلموا وزوجاتهم . . . ولكنه سبحانه قال : ﴿ احشروا الذين ظلموا وأزواجهم ﴾ . . لأن المرأة هنا هى الأساس فى الفساد . . وهى التى حرضت الزوج على المعصية وعلى المال الحرام . . وهى التى حولت حياته إلى جحيم حتى اضطر أن يمد يده إلى المال الحرام ليرضيها . . لذلك يؤتى بها أولا . . ثم يؤتى بالزوج لأنه أطاع .

إلى هنا نصل إلى نهاية هذا الكتاب عن يوم القيامة . . وقد تحدثنا فيه عن معنى اليوم . . وعن الموت والحياة . . وعما قبل البعث . . وعن الحياة فى البرزخ وعن يوم الحشر . . وعن أرض الميعاد . . ثمْ تعرضنا لبعض مشاهد يوم الحساب . . وسنكمل الحديث فى كتاب قادم إن شاء الله . . عن الحساب وكيف يتم . . وعن الجنة والنار .



الفهـرست



رقم الايداع
٥٩٩١ / ٩٧
الترقيم الدولى
I. S. B. N 977 - 08 - 0633 - 1

طبعت بمطابع دار أخبار اليوم

فى رحلة العطاء المتواصل لفضيلة الإمام الشيخ محمد متولى الشعراوى إشراقات و إلهامات متجددة تنير الطريق للسالكين ، وتهدى الحائرين ، وتعلم البشرية ما خفى عليها من أمور الدين .

إن « مكتبة الشعراوى الإسلامية » هى إحدى هذه العطاءات التى تولت « مؤسسة أخبار اليوم » إصدارها ، وصدر فى إطارها العديد من الكتب ، يتناول كل كتاب منها موضوعاً مستقلاً بذاته ، يعالج قضية من القضايا الدينية التى تهم كل مسلم و مسلمة ، وتفتح آفاقاً جديدة فى تفكيره .

وهذا الكتاب فيض أفاضه رحمن الدنيا و الآخرة على إمام الدعاة ، وأجراه على لسانه فى لمحات إيمانية و نفحات قلبية ، ينير طريق الهدايا للحائرين المتحيرين .